

تنظير الدكتور نوري جعفر في تفسير نشأة اللغة فسلجيا و نفسيا

المؤلفون المشاركون

ماهر خضير هاشم

عبد المهدي عبد الرضا حسن

المصدر

مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية

العدد

المجلد 19, العدد 1-2 (31 مارس/آذار 2011)17ص.

الناشر

جامعة بابل

تاريخ النشر

2011-03-31

دولة النشر

العراق

عدد الصفحات

17

الموضوع الرئيسي

اللغات

الموضوعات

- التاريخ - اللسانيات - الاتصالات - اللغة - قواعد اللغة - علم فقه اللغة - الأدب - الكتابة - علم الأجناس - الكلام
- الأصوات اللغوية

نمط استشهاد جمعية علماء النفس الأمريكية (APA)

عبد المهدي عبد الرضا حسن وماهر خضير هاشم. 2011. تنظير الدكتور نوري جعفر في تفسير نشأة اللغة فسلجيا و نفسيا. *مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية*,مج. 19, ع. 1-2.

https://search.emarefa.net/detail/BIM-286544

AMA MLA APA

نوع البيانات

مقالات

لغة النص

العربية

الملاحظات

يتضمن هوامش.

رقم السجل

BIM-286544

مجلة جامعة بابل / العلوم الإنسانية/ المجلد 19 / العدد (1) : 2011

تنظير الدكتور نوري جعفر في تفسير نشأة اللغة فسلجيا ونفسيا

عبد المهدي عبد الرضا حسن ماهر خضير هاشم

المدخل :

يتناول هذا البحث دراسة الدكتور نوري جعفر في تفسير اللغة فسلجيا ونفسيا، فبدأ البحث بتمهيد يشتمل على تعريف عام بشخصية نوري جعفر، حياته ودراسته، وأهم مؤلفاته العلمية، وقد تناول الباحثان تنظيره في ضمن المحاور الآتية :

المحور الأول: تفسير نشأة اللغة وتطورها في ضوء الأساس الفسلجي والنفسي.

المحور الثاني : علاقة الحواس باللغة.

المحور الثالث : علم الأصوات وعلاقته بعلم الفسلجة.

المحور الرابع: محتوى اللغة (العلامات، والإشارات، والرموز) من الناحيتين الفسلجية والنفسية.

المحور الخامس: موقف المعنى من الناحية الفسلجية.

وفي نهاية البحث ذكرنا ما أورده نوري جعفر من مفاهيم مبثوثة في كتابه (اللغة والفكر)، لهذه المصطلحات : اللغة، والفكر، والكلمة، والمعنى.

وانتهى البحث بخاتمة أوردنا فيها ما نبتغيه من كتابة هذا البحث.

التمهيد : شخصية نوري جعفر / حياته ودراسته، وأهم مؤلفاته العلمية :

عُرِف نوري جعفر باحثاً وخبيراً بعلم النفس والفسلجة يشار إليه بالبنان، ولد في قضاء (القرنة) في البصرة سنة 1914م[1]، من أب فلاح، وبجهده واجتهاده وذكائه حصل على معدل عال في المرحلة الإعدادية يؤهله لدخول كلية الطب بتفوق، فحمل شهادته وأوراقه وجاء بها إلى بغداد ليصدم بامتحان المقابلة التي تجريها كلية الطب بعميدها الانكليزي (سندرسن باشا) الذي سأله بعد ما رآه بزيه الريفي، هل بمستطاعك أن تصرف كل شهر (5) دنانير ؟ فأجابه نوري جعفر : لا أنا ولا أبي شاهدنا الـ(5) دنانير هذه ! فرفض عميد الكلية قبوله فيها على الرغم أن معدله 94%، مما دعاه إلى تحويل أوراقه إلى دار المعلمين العالية (كلية التربية حالياً) وكان واحدا من الفائقين الذين أرسلوه في بعثة دراسية إلى أمريكا ليظفر بشهادتي الماجستير والدكتوراه وكان من أساتذته هناك العالم الأمريكي جون ديوي، ثم عاد إلى ارض الوطن فعين أستاذا في كلية التربية ليكون واحدا من أفضل الكفاءات التي أسهمت في بناء جيل علمي، في سنة 1963 فصل من وظيفته ظلما وعدوانا ؛ لكنه تفرغ للبحث العلمي ليبدع في ميدانه ببحوثه الفائقة في الجامعات العالمية مما اضطر السلطة لإعادته إلى الوظيفة في الجامعة سنة 1970م حتى أحيل إلى التقاعد بعدما لاقى من عنت السلطات ما لاقى وليكون عرضة مرة أخرى لمتطلبات العيش في الظروف المعيشية القاسية التي مرت في العقود الماضية مما اجبر على الهجرة خارج العراق فاختار ليبيا إذ التقى به احد طلابه الذي أصبح أمينا عاما للتعليم العالي فقال له : لدي كلية جديدة أريدك

---

(1) ينظر : موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين، حميد المطبعي : 236/2، ومعجم المؤلفين والكتاب العراقيين : 1970م. 2000م، د. صباح نوري المرزوك : 180/8.

عميدا لها وفعلا جعله عميدا للدراسات العليا هناك، فبقي في ليبيا ليبدع ويطور موهبته العلمية بما توفر له من جو وموقع وظيفي عاليين فتجاوزت كتبه المؤلفة والمترجمة أكثر من (36) كتابا مطبوعا وعشرات البحوث والدراسات وما زال أثرها باقيا في معظم جامعات العالم، وبعد استقراره في ليبيا قدم بحثا علميا إلى إحدى الجامعات البريطانية يختص بالدماغ وكان بحثا فريدا وجديدا يتفوق به على العلماء والمكتشفين والغربيين مما دعا الجامعة البريطانية إلى دعوته لمناقشة بحثه، فاستجاب الدكتور نوري جعفر لدعوة الجامعة فتأنق وحمل بيده حقيبته الجلدية التي تحوي أوراقه وبحوثه وأوقف التاكسي لتوصليه إلى المطار، وكان ذلك في طرابلس في ليبيا وفي الطريق طمع سائق التاكسي بحقيبة نوري جعفر حسب أنها مملوءة بالنقود فكان هاجسه الشيطاني اللعين الذي تحرك في تلك اللحظة يدفعه للحصول على الحقيبة حتى لو قتل صاحبها وكأي مجرم حمل بيده آلة حديدية استخرجها من صندوق سيارته ليهشم بها رأس نوري جعفر ويرديه قتيلا دون رحمة بسنه او علمه او غربته، وكان ذلك الحادث المأساوي في السابع من تشرين الثاني سنة 1991م[1].

أما مؤلفاته العلمية، فهي ما يأتي، وقد رتبت على حسب الحروف الهجائية :

1. آراء حديثة في تفسير نمو الطفل وتربيته، دار ثقافة الأطفال، بغداد، 1987م
2. آفاق تربوية رصينة في التراث العربي الإسلامي، مطبعة وزارة التربية، بغداد 1987م.
3. الإبداع وإمكانيات العقل (بالإنكليزية)، بغداد، مطبعة الزهراء، 1976م.
4. أدب قصص الخيال العلمي وعالم الأطفال، مطبعة سومر، بغداد، 1987م.
5. اقتراحات لتطوير التعليم في العراق، بغداد، 1962م.
6. الأصالة في شعر أبي الطيب المتنبي، أصولها الدفاعية وجذورها الاجتماعية في ضوء فسلجة بافلوف، مطبعة الزهراء. بغداد، 1976م.
7. الأصالة في مجالي العلم والفن، بغداد، 1955م.
8. التربية وفلسفتها، بغداد، 1952م.
9. التقدم العلمي والتكنولوجي ومضامينه الاجتماعية، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، 1978م.
10. جدلية علم الاجتماع بين الرمز والإشارة، تأليف اخيود وزي، ترجمة : د. قيس النوري، مراجعة : د. نوري جعفر، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1989م.
11. جذور الإبداع لدى كل الناس، الموسوعة الصغيرة. بغداد، 1986م.
12. الجهاز العصبي المركزي، بغداد، 1970م.
13. الجوانب السيكولوجية في أدب الجاحظ، العراق، بغداد، 1981 م.
14. الحب بين القلب والدماغ، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1988م.
15. الخصائص العقلية والنفسية للطفل في مرحلة الحضانة، بغداد، 1979م.

---

[1] ينظر : جريدة المؤتمر، نوري جعفر، 2009/2/19 م.

16. دور المؤسسات التربوية في مجال التنمية الاقتصادية في الوطن العربي، العراق، بغداد، 1983م
17. الذكاء والقدرات العقلية الخاصة، مجلة آفاق عربية، السنة الرابعة، عدد 6، شباط 1979م.
18. رعاية الطفل في الأسرة (مبادئ عامة)، دار ثقافة الأطفال، بغداد، 1971م.
19. الصراع الأموي ومبادئ الإسلام،بغداد، مطبعة الزهراء، 1952م.
20. طبيعة الإنسان في ضوء فسلجة بافلوف، جزء 1، مطبعة الزهراء . بغداد،1971م.
21. طبيعة الإنسان (النوم . الأحلام . الاضطرابات العصبية) بين الفسلجة وعلم النفس، جزء 2، مطبعة الزهراء، بغداد، 1977م.
22. طبيعة النوم والأحلام في ضوء علوم الدماغ، وزارة الثقافة والإعلام . بغداد، 1986م.
23. العلوم الطبيعية وآثارها الحضارية . بغداد.
24. علي ومناوئه، العراق، بغداد، 1956م.
25. الفكر : طبيعته وتطوره، بغداد، 1970م.
26. الفكر التربوي العربي الإسلامي، مجلة البصرة،عدد 9، 1980م.
27. فلسفة التربية، بغداد، 1959م.
28. كتابات بين الجاحظ وجورج برناردشو وجائزة نوبل، دار الشؤون الثقافية . بغداد، 1990م.
29. اللغة والفكر، مطبعة مكتبة التو مي . الرباط (المغرب)، 1972م.
30. مسؤوليات الأسرة والمدرسة في تربية الأطفال، بغداد، 1979م.
31. مع الحريري في مقاماته، الموسوعة الصغيرة . بغداد، 1981م.

فضلا عن مشاركته في مؤتمرات كثيرة داخل العراق وخارجه، وعضوية لجان علمية منها : مؤتمر المدرسين الأول الذي عُقِد في دار المعلمين (كلية التربية) في بغداد، وهو عضو في جمعية علم النفس البريطانية، وفي جمعية رعاية الموهوبين البريطانية، وفي المجلس الدولي لرعاية الموهوبين وعضو مراسل في أكاديمية العلوم التربوية السوفيتية.

وهكذا كان نوري جعفر وافر النشاط في العمل الجاد كأنه يجد فيه راحة نفسه، عرفت شخصيته القوية الجذابة بعذوبة حديثه وطرافته، وسرعة بديهته، وقوة ذاكرته، ورقة تسامحه، صراحته.

وحظيت جهود نوري جعفر بعناية الدارسين والباحثين، لتواصل نشر كتبه داخل العراق وخارجه، فقد كتب عنه جمال الآلوسي رئيس قسم الفلسفة في جامعة بغداد، وكان على صلة مع أبرز علماء النفس والفسلجة عن طريق الندوات والمؤتمرات والمراسلة وتبادل المؤلفات.

ولعل ما سنقدم في هذا البحث يمثل جانباً من جهوده العلمية ويلقي الضوء على مكانة هذا الرجل العلمية في علم النفس والفسلجة وعلم اللغة الاجتماعي التي تدل على إخلاصه للعلم والمعرفة.

رحم الله الأستاذ نوري جعفر الذي أن بلغ تسعا وسبعين سنة من عمره، فكانت حياته حافلة بالعطاء العلمي، وكان العلم رائده، وطلب الاستزادة منه غايته.

أولاً : تفسير نشأة اللغة وتطورها في ضوء الأساس الفسلجي والنفسي :

إنّ دراسة موضوع تفسير نشأة اللغة البشرية شغل أذهان العلماء سواء أكانوا من داخل اللغة أم من خارجها إلى يومنا هذا. وقد قيل في نشأتها نظريات مختلفة منها النظرية التوقيفية التي ترى أنّ اللغة توقيف من عند الله(1)، ودليلهم في ذلك قوله جلّ ثناؤه :[وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا] (2)،ومنهم من ذهب إلى أنّ نشأة اللغة مواضعة واصطلاح وهو الرأي السائد (3)، ومنهم من رأى أن نشأتها من الأصوات المسموعات كدوي الريح، وصرير القلم، وخرير الماء، وقد سميت هذه النظرية بمحاكاة الأصوات الطبيعية (4)، ومنهم من قال إنّ أصل اللغة كان محاكاة للأصوات معانيها، ويعني ذلك أنّ جرس الكلمة يدل على معناها(5)، ومنهم من رأى أنّ اللغة في أول نشأتها كانت أصواتا تعجبية انفعالية تعبر عن خوف أو حزن أو فرح (6)، ومنهم من يربط نشأة اللغة بالاستجابة الصوتية للحركات العضلية، أي الأصوات العفوية التي تصدر عن الإنسان عندما يمارس عملاً عضلياً، أي أنه يتفوّه بمقاطع صوتية ترافق ما يبذله من جهد(7). وفي ضوء الاختلاف الكبير بين هذه النظريات التي تفسر نشأة اللغة، فقد أصبح الوصول إلى رأي ثابت أمراً مستحيلاً، وكلّ ما يمكننا الوصول إليه في هذا الموضوع ما هو إلا ضرب من الاجتهاد ؛ لأنه لا يخرج عن حيز التخمين أو الافتراض حتى أنّ الجمعية اللغوية في باريس قررت سنة 1878م، منع تقديم أي أبحاث في هذا الموضوع (8). لكن نوري جعفر رأى أنّ تفسير نشأة اللغة مرتبط بالأساس الفسلجي والبيئة الاجتماعية والثقافية أولاً، ثمّ بالأساس النفسي ثانياً، أي إنّ نشأة اللغة عنده مرتبطة بتطور أعضاء النطق والحس لدى الإنسان القديم، فذكر نوري جعفر أنّ العضلات الخاصة بالنطق بالأصوات البدائية نشأت على هيأة كلمات مبهمة تتميز من بعض الوجوه عن أصوات الحيوانات الراقية وتشبهها من حيث الأساس، ناحية كونها صيحات مبهمة لا تحمل فكراً معيناً، بل هي تعبير عن أشياء مادية محسوسة تعبيراً بدائياً وعن حالات انفعالية خاصة، وأنّ هذه العضلات نشأت في الأصل امتداداً لعضلات الجسم الأخرى المسؤولة عن الاستجابات الحركية المتعددة والفورية التي يمارسها الجسم في ارتباطاته البيئية عند قيامه بهذا العمل أو ذاك في أثناء تكيفه للبيئة المعاشية، وأشار إلى أنّ الأصوات المبهمة الأخرى تحولت بفعل ذلك النشوء بالتدرج وبمرور الزمن الطويل إلى إشارات تدل على أشياء بيئية محسوسة وتصف حوادث واقعية متفرقة، وأنّ هذه الإشارات كانت مطابقة في الأعم الأغلب للاستجابات العضلية الأخرى الآتية أو العضلية بإزاء الأشياء المحسوسة والحوادث، وعلى وفق هذه الطريقة نشأت عند الإنسان إمكانية (إعادة صوغ) بعض الآثار أو

---

(1) ينظر : الصاحبي، ابن فارس : 6، 7، 8.

(2) سورة البقرة : 31/2.

(3) ينظر : الخصائص، ابن جني : 9/1، 31، 44، 45، 427، ودراسات في فقه اللغة،د. صبحي الصالح : 34.

(4) ينظر : اللغة والنحو ، د. حسن عون : 9، ونظريات في اللغة، أنيس فريحة : 17.

(5) ينظر : دراسات في فقه اللغة : 141.

(6) ينظر : في علم اللغة العام، د. عبد الصبور شاهين : 72.

(7) ينظر : نظريات في اللغة : 20

(8) ينظر : فقه اللغة في الكتب العربية، د. عبده الراجحي : 77.

التنبيهات المنعزلة التي يتركها في ذهنه هذا الشيء المحسوس أو ذاك أو تطبعها فيه هذه الحادثة أو تلك، وكذلك نشأت لدى الإنسان إمكانية تكوين ارتباطات مؤقتة بين تلك الآثار المنطبعة في ذهنه، وقد نتج عن كل ذلك نشوء القدرة على تعبيرات مصاحبة تجمع بين المميزات المحسوسة وشبه الفكرية للأشياء والحوادث، وبمرور الزمن أصبحت بالتكامل النسبي المتواصل قادرة على التعبير عن نفسها على هيأة إنجاز مجازي[1] ثم يربط نوري جعفر كل ذلك بفسلجة الدماغ، إذ قال إنّ المحلل المخي الحركي (المركز المخي) هو المسؤول عن حركة عضلات الكلام المتحدث به أو المكتوب له أثر كبير في إبراز هذه القدرة أو الوظيفة الجديدة إلى حيز الوجود، وهذه مرحلة تطورية خاصة بالإنسان وحده اتصف بها في أول الأمر فكره البدائي المستند إلى قدرته اللغوية البدائية، وتعد هذه المرحلة هي أولى مراحل نشوء عملية التجريد والتعميم في تفكير الإنسان[2]، ثم أشار إلى المرحلة الثانية التي نتجت بفضل مواصلة استعمال المحلل المخي الحركي زمناً طويلاً من حياة الإنسان، في ممارسة هذه الوظيفة الجديدة نشأت في حدوده مواقع متخصصة أو مراكز مخية حركية وحسية تكون مسؤولة عن النطق بالكلمات البدائية (تحريك عضلات الحنجرة واللسان والشفتين)، وعن حركة عضلات اليد عند الكتابة، وبذلك تبلورت بواكير أو براعم الصوت اللغوي voice بمعناه الإنساني المعروف أو الكلام المنمق [3]. ويفهم من ذلك أنه من خلال الارتباط الوثيق في أثناء التطور والتخصص الذي نشأ في المراكز المخية الحركية المسؤولة عن حركة عضلات أعضاء النطق (الحنجرة، والشفتين، واللسان، والحبال الصوتية) نشأ الصوت الإنساني أو التسمية اللفظية البدائية للأشياء المحسوسة المتفرقة. وأوضح نوري جعفر أنّ هذه العملية كان يرافقها تطور آخر يحدث في المراكز المخية الحسية المتمثلة بالمركز المخي السمعي المسؤول عن التقاط الكلمات المتحدث بها وتمييز أصواتها عن الأصوات الأخرى، والمركز المخي البصري المسؤول عن رؤية الكلمات المكتوبة وتمييزها عن الأشياء المرئية الأخرى، وأدى ذلك كله بمرور الزمن إلى حدوث تحسن متواصل في أدوات الكلام الفسلجية، وفي الكلام نفسه الذي تحول من إشارات هيروغليفية ومسمارية إلى حروف وكلمات، ونشأت بالتدرج الزمني مع تلك الكلمات ارتباطاتها الصرفية والنحوية البدائية، ثم بتقدم حياة الإنسان البدائي نشأت قدرة مخية على الاحتفاظ بمعاني الكلمات أو بالصور الذهنية الناجمة عنها أو المدركات العقلية concepts، وهذه المراحل تمثل نشوء عملية التجريد والتعميم في الفكر الإنساني التي أخذت بالتكامل المتعاقب في الوصول إلى مستواها الراقي الحديث الذي أصبح فيه الفكر في أعلى مراتب تجريده [4].

وفي ضوء ذلك يمكننا تلخيص نظرية نوري جعفر في تفسير نشأة اللغة وتطورها في ضوء الأساس الفسلجي والنفسي على وفق النحو الآتي :

أ . القدرة على الكلام لم تحدث فجأة بل مرّت بسلسلة من التحولات والتطورات الجسمية والاجتماعية.

ب . هذه القدرة تعرضت لعملية تطور مخية لاحقة منذ نشوء الإنسان العاقل.

---

(1) ينظر : اللغة والفكر، د.نوري جعفر : 47.

(2) ينظر : المرجع نفسه : 48.

(3) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(4) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

ج . يتبع ذلك حدوث تكامل في جهاز النطق، ولا سيما في الحبال الصوتية والعضلات المرتبطة بها، واتساع تجويف الفم الذي سهّل حركة اللسان، وتحوّل عظم الفك الأسفل أو الحنك من هيأته المستطيلة إلى هيأته المدورة وفي تضاؤل حجم الأنياب[1].

د . ثم حدث تطور بايولوجي واجتماعي بين المراكز المخية اللغوية الثلاثة (الحركي المختص بنطق الكلمات، والسمعي المختص بسماع الكلمات المتحدث بها، والبصري المختص بقراءة الكلمات) ومعه جهاز النطق (الحنجرة واللسان والشفتان والحبال الصوتية) من جهة وبين محتوى اللغة (المعاني التي تحمل الرموز اللغوية المتحدث بها والمقروءة) من جهة أخرى[2]. يتبين لنا من ذلك أنّ نظرية نوري جعفر في تفسير نشأة اللغة قائمة على ربط العملية اللغوية بالعملية البيولوجية في الدماغ البشري من خلال الكشف عن طبيعة العلاقة القائمة بينهما، إنّ هذا المنظور يمثل الأكثر علمية مع التطور وإقناعاً في تفسير نشأة اللغة البشرية ؛ ذلك لأنها تتفق تماماً مع علم اللسانيات البايولوجي وتوجهاته في تفسير اللغة ودراستها واستعمال ذلك في تطوير تقنيات التعلم والتعليم للغات البشرية.

ثانياً : علاقة الحواس باللغة :

تنقسم الحواس الخمس على مجموعتين، الأولى : تنقل الانطباعات البيئية أو الإحساسات المختلفة عن طريق الاحتكاك المباشر بالأشياء المادية المحيطة بالإنسان، وهذه المجموعة تتألف من حاستي اللمس والذوق، أما المجموعة الأخرى فمؤلفة من حاسة البصر والسمع والشم التي تنقل انطباعات الأشياء المادية من دون أن يحتك احتكاكاً مباشراً بتلك الأشياء المادية المحيطة بالإنسان.

إنّ أعضاء الحس هي أدوات فسلجية معقدة التركيب تتألف من ثلاثة أجزاء متلاحمة متكاملة تمارس وظيفة مشتركة : هذه الأجزاء هي : جهاز الاستقبال أو التسلم الخارجي ويتمثل هذا الجزء في النهايات العصبية الحسية التي تلامس البيئة الخارجية وتتسلم آثارها على هيأة روائح وألوان وأصوات، وتنقلها إلى الجزء الثاني الذي يتمثل في الأعصاب الحسية، ثم تنقل هذه الآثار إلى الجزء الثالث الذي يتمثل في المراكز المخية الحسية المتعددة المعروفة (البصرية والسمعية والذوقية الخ).

وعلى وفق هذا فإنّ أعضاء الحس هي تشكيلات عصبية موجودة لدى الإنسان وظيفتها تسلم التنبيهات البيئية الحسية للتعرف عليها والتمييز بينها ؛لاتخاذ الموقف الذي يلائمها حفظاً لمصلحة الجسم وضماناً لاستمرار تكيفه للظروف البيئية.

إنّ التفسير الذي يحرص عليه نوري جعفر في ضوء نظريته، هو أنّ اللغة البشرية لم تصل إلى ما وصلت إليه من تكامل في التجريد والتعميم إلا بفضل العلاقات الفسلجية التي تربط الحواس وأعضاءها والمراكز المخية ووظائفها من جهة والبيئة الطبيعية والاجتماعية من جهة أخرى، إذ بيّن نوري جعفر أنّ تطور أعضاء الحس سار باتجاهين رئيسين متكاملين هما : ميل تلك الأعضاء نحو التخصيص المتزايد الأدق والأضيق مما أدى إلى تكامل وظيفتها المخية وتهذيب قدرتها على التفكيك أو تحليل البيئة الخارجية إلى عناصرها الأولية ثم

---

(1) ينظر : اللغة والفكر : 42 .

(2) ينظر : المرجع نفسه : 43.

تركيبها وإعادة صياغتها لفهمها على حقيقتها بعلاقاتها المتداخلة الخارجية والداخلية واتخاذ الموقف الملائم بإزائها، فالتخصص الدقيق هو الأساس الأول والأهم الذي استند إليه التطور الحسي، أما الاتجاه الآخر فمن الممكن أن يوصف بأنه نزعة نحو إحداث التوافق بين أعضاء الحس المختلفة من جهة، وبينها مجتمعة وبين التلبيات الحركية الملائمة من جهة أخرى (1).

فحاسة البصر وعضوها العين تؤدي الأثر الأول والأهم في حياة الإنسان، ولها فائدة كبيرة في نقل إشارات الأشياء المتحركة والراكدة إلى الدماغ ؛ ليتخذ الموقف الملائم، وإن معظم انطباعات الإنسان عن البيئة الطبيعية والاجتماعية تنقلها حاسة البصر، وهذه الحاسة لها فائدة كبيرة في تعلم اللغة ؛ لأنها مسؤولة عن رؤية الحروف والكلمات، فانطباعات الكلمات المرئية ينقلها العصبان الحسيان البصريان إلى المركز المخي الكلامي البصري(2).

أما حاسة السمع فلها أهمية كبيرة في حياة الإنسان من ناحية ربطه بالبيئة التي يعيش فيها الطبيعية والاجتماعية، ولولاها لاستحال على الإنسان أن يتعلم اللغة وأن يرتبط بالآخرين عن طريقها بالتحدث والإصغاء، وتلعب هذه الحاسة من هذه الناحية أثراً كبيراً قد يتجاوز أثر حاسة البصر، ذلك لأنّ باستطاعة الأعمى أن يتعلم اللغة ويتحدث بها ويصغي لما يتحدث به غيره، إذ أنّ حاسة السمع جهاز فسلجي حساس باستطاعته أن يتأثر بأدنى حدٍّ من الضغط الذي يحدثه فيه الهواء الملامس الذي يحمل الأمواج الصوتية الخافتة، فالكلمات المسموعة ينقلها العصب لمخي السمعي إلى المركز اللغوي المخي المختص بالكلمات المسموعة (3).

وتتجلى أهمية حاسة السمع عند فقدانها منذ الطفولة الأولى، إذ يتعذر تعلم الكلام، ومن ثم يحصل الانعزال لفقدان الاتصال عن طريق اللغة بالبيئة المحيطة (4).

أما حاسة الشم وعضو الأنف فلهما أثر كبير في تعلم اللغة، فإنّ منخري الأنف يمارسان وظائف التنفس والشم والرنين في أثناء الكلام، وذلك لأنّ الفتحات الأنفية والأنفية البلعومية تقوم بأثر (فجوات الرنين) التي يمر عبرها الصوت في أثناء الكلام(5) . وأما حاسة اللمس فلها فائدة كبيرة في تعلم اللغة عند فاقدي حاستي البصر والسمع ؛ لأنه من خلالها يستطيع الأعمى أن يقرأ.

ثالثاً : علم الأصوات وعلاقته بعلم الفسلجة :

تعرض كتب الأصوات عند تناولها للأصوات، لثلاثة علوم، هي علم الأصوات النطقي الذي يعد أقدم فروع علم الأصوات وأرسخها قدماً وأكثرها حظاً من الانتشار في البيئات اللغوية كلها، بسبب وظيفته وطبيعة الميدان المخصص له، فهو يدرس نشاط المتكلم بالنظر في أعضاء النطق، وما يعرض من حركات فيعين هذه الأعضاء ويحدد وظائفها وأثر كل منها في عملية النطق منتهياً بذلك إلى تحليل ميكانيكية إصدار الصوت من

---

(1) ينظر : اللغة والفكر : 8.

(2) ينظر : المرجع نفسه : 23 .

(3) ينظر : المرجع نفسه : 22 . 23.

(4) ينظر : المرجع نفسه : 28.

(5) ينظر : اللغة والفكر : 31 . 32.

جانب المتكلم [1]. وعلم الأصوات الأوكوستيكي الذي يعنى بدراسة الخصائص المادية أو الفيزيائية لأصوات الكلام في أثناء انتقالها من المتكلم إلى السامع[2] . أما العلم الثالث فهو علم الصوت السمعي وهو أحدث فروع علم الأصوات، وهو ذو جانبين، جانب عضوي أو فسيولوجي، وجانب نفسي، أما الأول فوظيفته النظر في الذبذبات التي تستقبلها أذن السامع، وفي ميكانيكية الجهاز السمعي ووظائفه عند استقبال هذه الذبذبات. أما الجانب الآخر فيصب جهوده على البحث في تأثير هذه الذبذبات ووقعها على أعضاء السمع (الداخلية منها بوجه خاص)، وفي عملية إدراك السامع للأصوات وكيفية هذا الإدراك[3].

وقد عرض علماء الصوت لكل ما يتصل بالصوت البشري من حيث صفته الفيزيائية، ومن حيث وصف جهاز النطق، ومن حيث استقبال الصوت وأعضاء السمع (الإذن) وأقسامها الخارجية والداخلية، إذ وقفوا عند هذا الحد ولم يتجاوزا ذلك، إذ إنّ البحث في تتبع الصوت اللغوي الذي تستقبله الأذن البشرية وانتقاله إلى الدماغ أو مناطق محددة منه، لم تزل محصوراً في دائرة ضيقة هي دائرة المتخصص تخصصاً دقيقاً بالمؤهلين تأهلاً في فسلجة الجهاز السمعي، وأشار كمال بشر إلى أنه ((من النادر أن نجد بحثاً صوتياً عاماً أو بحثاً لغوياً عاماً يعرض لهذا العلم ومشكلاته)) [4].

ويقرر أحمد مختار عمر ((أنّ تعرّف العقل على الأصوات الكلامية وتفسيرها ما يزال بعيداً عن منال الفحص المعملي... ؛ ولهذا فإنّ معلوماتنا في هذا الموضوع ما تزال تخمينية حتى الآن)) [5].

وذهب فندريس إلى أنّ الصور السمعية الداخلية التي يستقبلها السامع ليست لها أي قيمة إلا على أساس أنّ هذا السامع لديه القدرة على تحويلها إلى صور نطقية فعلية، وأنّ دراسة دقيقة لمراكز الأعصاب في الجانبين (المتكلم والمخاطب) تمكننا من معرفة هذه الحدود والتمييز بينها، غير أنّ هذه الدراسة ليست من مجال علم الأصوات phonetics [6].

أما التفسير الفسلجي فإنه يبدأ من حيث انتهى علم الأصوات بفروعه الثلاثة، إذ يتتبع الصوت بوصفه إشارة حسية عندما يستقبلها الدماغ أو بعبارة أدق المراكز المخية اللغوية. إذ أوضح نوري جعفر أنه ((ثبت علمياً في الوقت الحاضر أنّ الأصل الجسمي الذي تستند إليه اللغة المراكز المخية اللغوية وجهاز النطق والسمع والبصر هو نتاج عملية تطور طويلة الأمد من الناحيتين البيولوجية والاجتماعية على حد سواء، فجهاز النطق المتخصص بإخراج الكلام المنمق والأدوات العصبية والعضلية المعقدة الموجودة فيه وكذلك المراكز المخية اللغوية وجهاز السمع والبصر من ناحية ارتباطهما بالكلام المسموع والمقروء ناهيك عن الكلام نفسه من ناحية

---

(1) ينظر : المرجع نفسه : 15.

(2) ينظر : علم اللغة العام (الأصوات)، د. كمال بشر : 17 .

(3) ينظر : المرجع نفسه : 12. 13 .

(4) ينظر : المرجع نفسه : 14.

(5) ينظر : دراسة الصوت اللغوي، د. أحمد مختار عمر : 30.

(6) ينظر : اللغة، فندريس : 42.

محتواه لم تصل جميعها إلى مستواها الحاضر المتكامل دفعة واحدة بل أخذت بالتحسن المتواصل المتدرج بمرور الزمن الطويل وبتوافر العوامل البيئية الملائمة)) (1).

وقد عرض البحث الفسلجي لجهاز النطق موضحاً وظيفة كلّ عضو ومضيفاً ملاحظات جديدة مهمة لم يعرض لها علم الأصوات، وسنعرضها مثلما وردت في كتاب اللغة والفكر، إذ يقول نوري جعفر : ((وقد ثبت في الوقت الحاضر أنّ تطور حافة الحنك هو أول مستلزمات نشوء القدرة على النطق بالكلمات من الناحية التشريحية، وهو الذي ينفرد به الإنسان العاقل ليس بالموازنة بالحيوانات الراقية، فحسب وإنما أيضاً بالموازنة بأنواع الإنسان المنقرضة إنسان جاوا وإنسان بكين وإنسان هايدلبرغ وحتى إنسان نندرتال)) (2) ثم ذكر أنّ ((هناك عوامل فسلجية كثيرة أخرى مهدت للقدرة على النطق بالكلمات عند الإنسان يأتي في مقدمتها تحول الفك الأسفل إلى هيأة قوس بعد أن كان مستطيل الهيأة وزيادة حجم تجويف الفم مما سهّل حركة اللسان بطلاقة وكذلك حركية الفك الأسفل باتجاه جديد مما أدى إلى تقلص الأنياب)) (3). وأشار إلى أنّ قدرة الإنسان على الكلام مرتبط بايولوجياً بتطور الجهاز العصبي المركزي خاصة القشرة المخية ولاسيما الفصان الجبهيان، وبتطور الحواس ولاسيما السمع والبصر وانتصاب القامة وتطور القدمين واليدين خاصة مواقع الإبهام بالنسبة لأصابع اليد الأخرى واتساع وظائفه، وهي ظواهر اجتماعية تاريخية النشأة وإن كانت جسمية التركيب (4).

هذه الملاحظات المهمة التي ذكرها نوري جعفر لا نجدها في كتب علم الأصوات، وإنما نجد عرضاً عاماً ووصفاً لأعضاء جهاز النطق.

وبين نوري جعفر أنّ جهاز النطق من الناحية الفسلجية مرتبط بالمركز المخي الحركي ؛ إذ انه يرتبط بالحنجرة وبحبالها الصوتية التي تحصل فيها الذبذبات عن طريق الهواء الذي تقذفه الرئتان، وكذلك التجاويف التي تقع في أعلى الحنجرة، كالتجويف البلعومي والتجويف الفموي، التي تقوم بدور أجهزة الرنين التي تضخم مختلف النغمات الصوتية، وبذلك تعطي للصوت طابعه الخاص بكل فرد (5).

إنّ هذا التفسير لا نجده في كتب الأصوات التي ظلت بعيدة عن الأخذ بالمعطيات الفسلجية التي فتحت آفاقاً واسعة لتفسير حدوث الصوت من حيث النشوء والارتقاء، ومن هذه المعطيات ما ثبت أنّ الصوت voice لا يحدث بفعل ذبذبات الحبال الصوتية وحدها وإنما أيضاً وبالدرجة الأولى والأهم بفعل تكثيف عمود الهواء الذي تحدثه تلك الذبذبات فوق الحبال الصوتية في الأساس وتخفيفه أيضاً (6). وقد ثبت أيضاً أنّ اختلاف عمود الهواء هذا عن نظيره الذي يحدث بفعل ذبذبات صوت الصافرة، هو المسؤول عن الفرق بين الصوتين ؛ لأنّ ذبذباته تكون مرنة وتسير باتجاه تيار الهواء الطولي بخلاف ذبذبات صوت الإنسان التي تكون عرضية (7).

---

(1) اللغة والفكر : 42 .

(2) المرجع نفسه : 58.

(3) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(4) ينظر : المرجع نفسه : 62 .

(5) ينظر : اللغة والفكر : 64 .

(6) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(7) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها .

وكذلك من معطيات النظرية الفسلجية . كما ذكرت سابقاً . تفسر علاقة المشي واستعمال الحواس وتطور الحواس السمعية والبصرية، وانتصاب القامة وتطور القدمين واليدين ولاسيما موقع الإبهام من أصابع اليد واتساع وظائفه، بنشأة الكلام وتطوره[1].

وأشار نوري جعفر إلى أنّ ظهور اللغة عند الإنسان أدى إلى حدوث تطور لاحق في أجهزة الجسم المتعلقة به، إذ إنّ نشوء الكلام البيّن الواضح أو المنمق كان عاملاً في تطور عضلات الوجه وتعبيراته أو قسماته[2].

رابعاً : محتوى اللغة من الناحيتين الفسلجية والسايكولوجية :

ويتمثل محتوى اللغة الذي قصده نوري جعفر في ثلاثة أمور هي :

الأمر الأول : لغة الإشارات :

إذا كان المقصود باللغة البشرية ((أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم))[3]، أو ((كل لفظ وضع لمعنى)) [4] ، فإنّ الطبيعة الجامدة أو الحية تتكلم أيضاً : فالسحاب مثلاً يشير إلى المطر، والرياح تتكلم عن اقتراب العاصفة، وانحناء أعضاء الأشجار يشير إلى هبوب النسيم، والدخان يدل على النار.

أوضح نوري جعفر أنّ هذه اللغة تنبئ ولا تتحاور أو تتجادل أو تتبادل المعلومات أو تتداول الخبرات بخلاف ما يحصل عند الإنسان أو تنقل المشاعر لدى الحيوانات الراقية منها، وعلى هذا فإنّ هذه اللغة المشار إليها ليست موجهة نحو شخص بالذات أي إنّ لغة الجماد والنبات تشير إلى علامات طبيعية natural signs[5] وبيّن أن التأشير بمعناه الحسي المشترك بين الإنسان والحيوانات الراقية الذي يستقبله الجهاز العصبي من البيئة المحيطة على هيأة ألوان وأصوات وروائح وما يجري مجراها هو سمة المخ المميزة أو وظيفته الرئيسة، ويدعى فسلجياً النشاط الحسي أو المنظومة الإشارية الحسية بوصفه يشير بشكل مباشر إلى الأشياء المادية المحسوسة الموجودة في العالم الخارجي، وأشار إلى أنّ هذه المنظومة الحسية عند الإنسان وحده يدخل في ضمنها العلامات المصنوعة جميعها ذات الدلالة أو الأهمية أو المغزى التي تشير إلى وجوه النشاط الاجتماعي المتعددة وتنظمها : مثل علامات المرور باليد أو الضوء وأصوات المنبهات والأجراس وعلامات الاستدلال الأخرى[6].

وصرح نوري جعفر أنّ ((الشيء المهم في جميع هذه الإشارات والعلامات الطبيعية والمصنوعة بما فيها الكلمات هو معناها أو ما تدل عليه أو تشير إليه وليس هو كيانها المادي الحسي نفسه)) [7].يفهم إذا من هذا أنّ المعنى (الدلالة) الذي تشير إليه العلامات والإشارات الطبيعية أو المصنوعة جميعها هو الأساس أي

---

(1) ينظر : المرجع نفسه : 62 .

(2) ينظر : : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(3) ينظر : الخصائص : 33/1

(4) ينظر: في علم اللغة، د. محمد محيي الدين أحمد محمود : 5 .

(5) ينظر : اللغة والفكر : 50.

(6) ينظر : المرجع نفسه :50. 51.

(7) المرجع نفسه والصفة نفسها.

بمعنى آخر أنّ المعنى (الدلالة) هو أساس المنظومة الإشارية الحسية التي ينفرد الإنسان وحده بها لا كيانها المادي الحسي. وذكر لنا أمثلة لتوضيح ذلك، فمنها[1] : لو أنّ شخصاً يلوح من بعيد بإحدى يديه بشكل يثير الاهتمام، فإذا وقف من ينظر إليه موقف غير المعني به فإنّ هذا التلويح يصبح عنده مجرد حركة في الهواء الملامس غير ذات أهمية أو دلالة أو مغزى، أما إذا أعطي ذلك التلويح باليد عناية من ينظر إليه وأصبح ذا دلالة عنده فإنه يقف موقف المعني بتفسير معناها، فيسأل نفسه : أ هذا الشخص يستغيث ؟ أم أنه يحذر من خطر محدق ؟ فيقترب منه في الحالة الأولى لإغاثته ويبتعد عنه في الحالة الثانية لتفادي الخطر المحتمل الذي يحذره منه، ومعنى هذا أنه يختار أحد موقفين متنافرين إزاء ذبذبات في الهواء متماثلة من الناحية المادية ومثال آخر مأخوذ من الحياة التعليمية[2] : إنّ صوت الجرس الذي يسمعه الطلاب في بداية كل درس من الدروس في أثناء اليوم المدرسي المعتاد يعني دخولهم إلى قاعات الدرس لتلقي الدروس، والصوت نفسه يسمعونه عند نهاية كل درس يعلن الخروج من تلك القاعات وانتهاء عملية التلقي الذهني والانصراف إلى الراحة المؤقتة وتبادل قاعات الدرس والمدرسين، أي أنّ الطلاب والمدرسين يقفون موقفين معارضين إزاء ذبذبات صوتية في الهواء متماثلة من الناحية الفيزيائية.

وفي ضوء ما تقدم، قال نوري جعفر : ((إنّ المتخاطبين بالإشارات يستعملون إشارات متماثلة في تركيبها أو مظهرها إلا أنّ الاتصال بينهم لا يتم بسبب ذلك بل بفعل المعنى المتفق عليه الذي يستنبطونه منها، وفي حالة فقدان الاتفاق على معنى مشترك مستمد من إشارات متماثلة في مظهرها الخارجي فإنّ التفاهم لا يتم وينقطع الاتصال الفكري بين المتخاطبين، وقد يحصل هذا أيضاً في الألفاظ الكلامية التي تحمل أكثر من معنى، حتى في الكلمات التي تحمل معنى محدداً ولكن ترافقها في أثناء الكلام إشارات معينة باليد أو الوجه، وقد تحمل الكلمة خلاف معناها أحياناً . كما . يحدث مثلاً : في حالة المجاز أو الكلام المبطن باللغة الدارجة، وفي حالة التعابير السخرية أو التهكم أو الغمز))[3]. وعلى هذا اتخذ أنه لابد في لغة الإشارات وفي لغة التخاطب بالكلمات من توافر شخصين على الأقل أحدهما الذي تصدر عنه الإشارة والآخر الذي توجه الإشارة إليه، وأنّ هذه الإشارة لا تتحول أداة اتصال فكري (لغة) بينهما إلا إذا فهمها الشخص الآخر بالمعنى الذي يقصده الأول، وكيّف سلوكه على وفق ذلك، أما إذا فسر معناها على وجه آخر فإنّ الصلة الفكرية تتقطع بينهما ولم تعد الإشارة أداة اتصال [4].

الأمر الثاني : لغة الرموز :

تؤلف الرموز اللغوية المتحدث بها (الأصوات التي تتقلها حاسة السمع)، والرموز المكتوبة (المرئية التي تتقلها حاسة البصر)، هذا ما يسميه علماء الفسلجة المنظومة الإشارية الثانية التي ينفرد بها الإنسان

---

(1) ينظر : المرجع نفسه : 52 . 53

(2) ينظر : المرجع نفسه: 53 . 54.

(3) اللغة والفكر : 54.

(4) ينظر : المرجع نفسها والصفحة نفسها .

وحده[1]. وبهذا فإنّ الإنسان ينفرد دون سائر الحيوانات الراقية بأنه يمتلك فضلاً عن منظومة الإشارات الحسية التي يشترك فيها مع الحيوانات الراقية، منظومة إشارية كلامية نشأت بعد المنظومة الحسية تأريخياً وبالاستناد إليها وبالعمل جنباً إلى جنب معها، إذ ذكر نوري جعفر أنّ اللغة احتلت منذ نشوئها وفي مجرى تطورها المكان الأول والأهم في علاقات الإنسان مع البيئة المحيطة، وأخذت الكلمات بمرور الزمن تعبر عن الإشارات الحسية جميعها وتحل محلها الاستجابات الفسلجية التي تستثيرها مسمياتها : فكلمة (ليمون حامض) أو (سمك) أو (أب) أو (مدرس)،....، تحل في أثناء الحديث والقراءة محل الشيء المادي الذي تعبر عنه، والألفاظ اللغوية التي تعبر عن نفسها على شكل رموز صوتية أو مكتوبة أوجدها الإنسان نفسه في مجرى تأريخه الطويل لتنظيم حياته الاجتماعية[2].

وحرص نوري جعفر على ((أنّ قيمة الرموز اللغوية الصوتية والسمعية تكمن في معناها أو دلالتها أما تشير إليه لا في كيانها الرمزي المادي المنطوق به أو المقروء)) [3].

ويتضح من هذا أنّ المعنى (الدلالة) هو الأساس الذي تقوم عليه الرموز اللغوية الصوتية والسمعية لكي تتم عملية الاتصال الفكري (اللغة). وقد تحدث نوري جعفر عن نشأة الكلام، إذ قال : ((نشأ الكلام المتحدث به على هيأة أصوات مبهمة يتبادلها أفراد المجتمع البدائي القديم في مجرى حياتهم اليومية في أثناء الصراع ضد الطبيعة العاتية من أجل البقاء،ثم أخذت هذه الأصوات بالتطور التدريجي بمرور الزمن الطويل وبالدقة والإحكام إلى أن تحولت إلى الكلام المنمق الذي بدأ بالتحدث به الإنسان العاقل)) [4].

ويفهم من هذا أنّ اللغة هي حصيلة التطور الاجتماعي ظهرت في أول الأمر على هيأة رموز صوتية متحدث بها ثم أضيفت إليها بعد ذلك بزمن طويل الرموز المكتوبة ثم الرموز المطبوعة، غير أنّ نشوء اللغة وتطورها ((لم يكن مستطاعاً إلا بعد أن بلغ دماغ الإنسان وجهاز الصوت عنده وحاستا البصر والسمع بدرجة معينة من الارتقاء، وقد عمل هذا الارتقاء بدوره على تحسين ظروف العيش الاجتماعية وتطورها . كما . عملت ظروف العيش الآخذة بالتطور من ناحيتها على تحسين الأسس الفسلجية المخية للكلام فاستمر هذا الأخير على تطوره باعتباره ظاهرة اجتماعية المحتوى فسلجية الأساس الجسمي)) [5].

يتضح لنا من هذا إذا أنّ اللغة نشأت وتطورت تاريخياً جنباً إلى جنب مع نشوء ظروف العيش الاجتماعية وتطورها، وعملت بأثرها إيجابياً على تحسين حياة الإنسان المعاشية وجهزته بوسيلة جديدة للاتصال بالبيئة الطبيعية والاجتماعية وتسخيرها لمصلحته، أي أنّ اللغة ظاهرة اجتماعية تم نشوؤها في مجرى نشاط الإنسان الاجتماعي وفي زخم مغالبة الطبيعة.

---

(5) ينظر : المرجع نفسه : 56.

(1) ينظر : المرجع نفسه : 56.

(2) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(3) المرجع نفسه : 57.

(4) اللغة والفكر : 57.

وذكر نوري جعفر أنّ أثر اللغة لا يقتصر على نشوء الأفكار وتطورها، وإنما هو يشمل أيضاً إدراك الأفكار ونقلها أو تداولها، ولولا اللغة المكتوبة بالدرجة الأولى لاستحال نقل الخبرة الإنسانية عبر الأجيال ولانعدم الانتفاع بتلك الخبرة في مجرى تطور المجتمع الإنساني، وهذه الحالة تحتم على كل جيل أن يبدأ مجدداً من المكان الذي يبدأ به سلفه عند محاولته التعرف على نفسه وعلى العالم الذي يعيش فيه، وذكر أنّ للغة أثراً فعّالاً في حياة الشخص الانفعالية لأنّ باستطاعتها أن تستثيره ما تستثيره مسمياتها، ولها كذلك أثر كبير في تنظيم السلوك[1]. وأرجع أنّ ذلك كله ناجم بالدرجة الأولى والأهم من صفتي التجريد والتعميم اللتين تتصف بهما الكلمات التي تتألف اللغة منهما[2].

فعرّف التجريد بقوله : ((معناه قيام الأسماء أو الصفات مقام مسمياتها وموصوفاتها أو هو بعبارة أشمل، حلول الألفاظ محل الأشياء التي تدل عليها، أي انتزاع المسميات وتجريدها أو تحريرها لغوياً ونظرياً عن ارتباطاتها أو علاقاتها المألوفة ووضعها في علاقات لفظية أخرى، والتجريد هذا . هو من خواص المنظومة الإشارية الثانية . وهو مقتصر على الإنسان وحده ويحصل عن طريق الصور الذهنية التي تنبثق عن الظواهر البيئية الطبيعية والاجتماعية وتطابقها)) [3].

أما التعميم الذي يرتبط التجريد به أوثق ارتباط، فوضّحه بقوله : ((هو تعبير لفظي مفرد يعبر عن صفات كثيرة مشتركة موجودة بين مجموعة من المسميات، فكلمة (كرسي) مثلاً التي هي تجريد عن الكرسي المادي المحسوس، هي تعميم في الوقت نفسه تنطوي على الصفات المشتركة الموجودة بين جميع أنواع الكرسي التي يتعذر حصرها...، وهذا يدل على أنّ وظيفة اللغة الأساسية من حيث هي أداة التفكير والتعبير هي التعميم الذي هو نقل الخبرة الإنسانية والمعرفة عبر الأجيال المتعاقبة، والتعميم في جوهره هو معنى الكلمة أو فحواها))[4]. وعلى هذا فإنّ كلام (الببغاء) هو كلام بدائي يفتقر إلى التعميم، ويفتقر أيضا إلى التجريد، وذلك لأنه مجرد ترديد أصوات ترديداً آلياً لا معنى لها عند (الببغاء) نفسها، وأنّ المعنى الذي يفهمه الإنسان من هذا الكلام لا يحدث بسبب ترديد (البغاء) إياه ؛ لأنّ الإنسان سبق أن اكتسب ذلك المعنى من البيئة الاجتماعية في مجرى حياته. وفي ضوء هذا الأساس وضّح نوري جعفر أنّ اللغة تستند فسلجياً إلى المنظومة الإشارية الأولى (الحسية) مثلما يستند البناء إلى الأرض، والمنظومة الإشارية الثانية (اللغة) لا تتعامل بشكل مباشر مع الإشارات الحسية الأمر الذي يؤدي إلى اتساع معاني الإشارات الحسية اتساعاً مذهلاً بفعل نشوء أساس جديد للنشاط العصبي الأعلى عند الإنسان ((تجريد إشارات المنظومة الحسية عن ارتباطها الواقعية وتعميمها أيضاً))[5]. وهذا يدل على أنّ الإنسان تخطى في أثناء تطوره الاجتماعي حدود المؤثرات الحسية الخاصة به وأنّ نشاطه العقلي وإن كان فسلجياً من حيث أساسه الجسمي إلا أنه في جوهره اجتماعي النشأة والمحتوى، وأنّ البيئة

---

(1) ينظر : المرجع نفسه : 58 .59.

(2) ينظر : المرجع نفسه : 96.

(3) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(4) اللغة والفكر : 56.

(5) المرجع نفسه : 60 .

الاجتماعية تنعكس في عمل المنظومتين الإشارتين المشترك وعلى هذا فإنّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يفكر عبر الألفاظ وفيها، ومعنى هذا.أنّ المنظومة الإشارية الثانية (اللغة) أساس متين في تكوين الفكر أو الإدراك عموماً من حيث جوهره أو محتواه، وهذا ما أكدّه نوري جعفر من حيث أنّ نشوء الإدراك عبر اللغة أدى إلى جعل الفكر يتصف بالقدرة على الخلق والابتكار [1].

وذكر أنّ المنظومة الإشارية الثانية (اللغة) وأداتها الفسلجية المخية المتمثلة في الفصين الجبهيين بالدرجة الأولى تعد آخر حلقة تطورية اكتسبها الإنسان في مجرى عملية النشوء والارتقاء البايولوجية والاجتماعية، فالفصان الجبهيان اللذان بلغا أرقى تطورهما عند الإنسان العاقل، والمتخلفان التطور لدى أرقى الحيوانات يعبران عن مبدأ جديد للنشاط العصبي الأعلى عند الإنسان (مبدأ التجريد والتعميم وهو الصفة المميزة للغة)، وأشار إلى أن نشوء اللغة من حيث محتواها ومن ناحية مراكزها المخية وأعضاء الصوت الفسلجية عند الإنسان أحدث تبدلاً جذرياً ونوعياً من ناحية تكديس الخبرة الفردية على شكل معارف نظرية ونقلها من شخص إلى آخر ومن جيل إلى جيل تحدثاً وكتابة، وكذلك أخذت اللغة نفسها منذ نشوئها تؤدي الأثر الأول والأهم في حياة الإنسان وفي تطوره الفسلجي والاجتماعي، معنى هذا أنّ المنظومة الإشارية الأولى (الحسية) نفسها قد تعرضت لتطور لاحق نتيجة الحياة الاجتماعية، ولم تبق ذات طبيعة فسلجية صرفة . كما . هي الحال في الحيوانات[2].

الأمر الثالث : لغة الطفل :

لم نجد من خلال اطلاعنا على كتب اللغات والأصوات ربط لغة الطفل بالناحية الفسلجية، نعني بها : كيف نشأت المراكز المخية اللغوية الثلاثة (الحركي المسؤول عن نطق الكلمات، والسمعي المسؤول عن سماع الكلمات المتحدث به، والبصري المسؤول عن قراءة الكلمات) ؟

وضح نوري جعفر لنا في كتابه اللغة والفكر كيفية نشوء المراكز المخية اللغوية الثلاثة عند الطفل، إذ قال : ((دلت الدراسات الفسلجية الحديثة على أنّ المراكز المخية اللغوية الثلاثة لا تنمو جميعاً بشكل متناسق عند الطفل بعد الولادة ففي الأشهر الأولى بعد الولادة يبدأ ظهور المركز المخي الكلامي السمعي الذي يمهد بعد ذلك ببضعة أشهر لظهور المركز المخي الكلامي الحركي الذي يتضح كثيراً في نهاية السنة الأولى، ثم يليه بعد ذلك منذ السنة الثانية ظهور المركز المخي اللغوي البصري، وهذا يدل على أنّ الأسس الفسلجية المخية للغة تبدأ بالنشوء والارتقاء عند الطفل بشكل متدرج وأنّ الأقدم منها يهيئ الأساس المناسب لنشوء الأحدث، وأنّ الطفل لا يستطيع ممارسة أي شكل من أشكال الكلام قبل نضج المركز المخي المسؤول عنه ووصوله إلى مستوى معين))[3].

وإنّ ذلك مقرون بشرطين [4]: الأول : حدوث نضج في الأجهزة الجسمية الأخرى ذات العلاقة بالكلام كاللسان والشفتين والحنجرة والحبال الصوتية وجهاز السمع والبصر. والآخر : وجود مجتمع يتداول اللغة من ناحية

---

(6) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(1) ينظر : المرجع نفسه : 62 . 63 .

(2) اللغة والفكر :63. لا

(3) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها .

محتواها يترعرع الطفل فيه، ومعنى هذا أنّ الطفل وإن كان يمتلك فطرياً مستلزمات الارتباط العصبي للمنظومة الإشارية الثانية (اللغة) منذ الولادة إلا أنه لا يستطيع التحدث باللغة أو قراءتها إلا بعد أن يبلغ تطور القشرة المخية عنده حده الأدنى حوالي السنة الثانية من العمر شريطة أن تتوافر له البيئة الاجتماعية التي تزوده بالأساس الاجتماعي للغة أو محتواها من حيث هي إشارات صوتية أو رموز مكتوبة ذات دلالات معينة.

وذكر نوري جعفر : ((فقد ثبت علمياً في الوقت الحاضر أنّ الكلام المتحدث به مثلاً من حيث وظيفته البايولوجية والاجتماعية لا يتوقف فقط على ممارسة جهاز النطق وظيفته بالشكل السليم، وإنما هو يتوقف أيضاً على جهاز السمع، وقد أثبتت دراسات فسلجية كثيرة معاصرة أنّ جهاز السمع هو أضعف الأجهزة الحسية عند الطفل المولود حديثاً ويليه جهاز النطق بحيث يخيل أنّ الطفل يولد أصم وأبكم، وقد ثبت أنّ عملية استنشاق الهواء والتثاؤب والصرخة الأولى في أعقاب الميلاد تلعب كلها دوراً فعالاً في فتح قناة استاخوس السمعية مما يؤدي بالسائل الجلايتني الكثيف الموجود في الأذن اليسرى بصورة خاصة إلى أن يخرج منها ليحصل السمع))[1]. وقد عزا سبب الصرخة الأولى بعد الميلاد مباشرة يرجع إلى ضعف قشرته المخية الذي لا يسمح له بالكلام مع العوامل الأخرى الفسلجية والاجتماعية التي يفتقر إليها الطفل في هذه المرحلة المبكرة من حياته[2]. إنّ تعلم اللغة منذ مرحلة الطفولة الأولى بالغ الأهمية في تطور الفكر عند الإنسان، وتعلم لغة الحديث في أول الأمر ثم لغة الكتابة بعد ذلك وعلى أساسه يهيئ للطفل الظروف الاجتماعية الملائمة لنشوء مدركاته العقلية ووظائفه العقلية العليا ومعرفته عموماً، إذ قال : ((وقد ثبت في ضوء الدراسات الفسلجية الحديثة أنّ دماغ الطفل متخصص بتعلم اللغة المحلية واللغات الأجنبية حتى السنة التاسعة إذا أحسن المعنيون بتربيته استثمار ذلك على الوجه الأفضل وهيأوا له الإمكانيات البيئية، وثبت أيضاً أنّ الطريقة المباشرة في تعلم لغة التخاطب في البيت بالاشتراك الفعلي مع الأسرة في شؤون الحياة هي أفضل أساليب تعلم اللغة...، والطفل يبدأ في مجرى نضجه المخي بصورة تدريجية بالتقاط الكلمات وينبري الراشدون المحيطون به إلى مساعدته، غير أنّ المبادرة في التعلم تأتي من الطفل لا من الكبار ؛ ذلك لأنه ملزم بتعلم اللغة لأنها أداته الوحيدة للتعبير عن حاجاته الجسمية والاجتماعية ووسيلة ربطه بالأسرة، ويعزى نجاح الطريقة المباشرة هذه في تعلم اللغة إلى عاملين أحدهما فسلجي والآخر سايكولوجي))[3].

وقد رسم لنا نوري جعفر أثر المراحل الأساسية لنشوء الكلام وتطوره عند الطفل، وهي على النحو الآتي[4] : المرحلة الأولى : ارتباط الكلمة بالشيء الذي تعبر عنه أو ارتباط الاسم بمسماه، ولحدوث ذلك لابد من وجود علاقة بين الكلمة والشيء الذي تدل عليه أو صلة موضوعية بينها وبين ما تعنيه، وإذا انعدمت تلك الصلة تعذر الوصول إلى المرحلتين اللاحقتين.

---

(1) المرجع نفسه : 65 .
(2) ينظر : المرجع نفسه : 66.
(3) اللغة والفكر : 143. 144 .
(4) ينظر : المرجع نفسه : 141. 142.

المرحلة الثانية : في هذه المرحلة التي تأتي في أعقاب المرحلة الأولى وبالاستناد إليها يدخل الراشدون المحيطون بالطفل طرفاً ثالثاً بين الكلمة والشيء الذي تدل عليه الأمر الذي يجعل الكلمة بالتدريج وبمرور الزمن وسيلة اتصال ذهني اجتماعي بين الطفل وبينهم لتداول الأشياء المحيطة والتعامل بها ومعها.

المرحلة الثالثة : المرحلة الأخيرة الأرقى التي تصبح الكلمة فيها ذات معنى خاص بالنسبة للطفل نفسه وتكون أداة فكرية ترتبط بكلمات أخرى لتنظيم سلوكه وارتباطاته الطبيعية والمجتمع،ولكي تقوم الكلمة بواجبها على أفضل وجه لابد من أن تتصف بالتعميم الذي هو جوهرها، وعملية التعميم هذه تستند في أصلها الفسلجي إلى عمليتي التحليل والتركيب المخيتين.

خامساً : موقف المعنى من الناحية الفسلجية :

يعد المعنى أكثر الأشياء جدلاً على مستوى النظرية اللغوية، أو على مستوى النظرية الصوتية، وظلت العلاقة بين اللفظ والمعنى تأخذ أشكالاً كثيرة، فمرة على شكل دال ومدلول، ومرة على شكل صورة حسية مادية، وصورة ذهنية، ومرة على شكل اللغة والفكر، وأنّ العلاقة بينهما فسرت أكثر من تفسير، بين الطبيعية والاعتباطية والوضعية [(1)].

أما النظرية الفسلجية فإنها تنظر إلى العلاقة بين اللفظ والمعنى من زاويتين، الأولى من زاوية العلامات والإشارات والأخرى من زاوية اللغة والفكر، أما العلامات والإشارات والرموز فهي تؤلف ما يسمى بالمنظومة الإشارية التي ينفرد بها الإنسان وحده، فالكلمات المنطوقة أو المكتوبة إشارات حسية تدل على الأشياء المادية التي انطلقت منها وبمرور الزمن أخذت تعبر عن الإشارات الحسية جميعها، وتحل محلها وتستثير الاستجابات الفلسجية التي ستثيرها مسمياتها أي أن الألفاظ اللغوية تعبر عن نفسها على شكل رموز صوتية مكتوبة أوجدها الإنسان نفسه في مجرى تاريخه الطويل لتنظيم حياته الاجتماعية، إن قيمتها الصوتية والسمعية تكمن في معناها أو دلالتها أو ما تشير إليه لا في كيانها الرمزي المادي المنطوق به أو المقروء[(2)] إذ إنّ هذا المفهوم قد تردد في كتاب نوري جعفر (اللغة والفكر) أكثر من مرة، قال : ((لاشك في أنّ الكلمة المتحدث بها والمكتوب،هي أكثر من مجرد شيء مادي محسوس (صوت نسمعه أو رمز مدوّن نقرأه) فهي فضلاً عن ذلك وبالدرجة الأولى والأهم تحمل معنى معيناً متفقاً عليه، ترمز إلى شيء أو تدل عليه أو تعبر عنه أو تشير إليه، وإنّ الإنسان يستجيب لهذا المعنى، وليس للصوت أو الرمز المكتوب في حد ذاته)) [(3)].

واستدل على صحة هذا القول بإجراء مختبري أجري على الكلمات المترادفة (أصوات مختلفة ورموز مكتوبة مختلفة والمعنى واحد) فإنّ الاستجابة تكون للمعنى وليس للصوت أو الرمز، إذ أوضح انه : ((في حالة تعبير عدة كلمات ذات أصول مختلفة ورموز مكتوبة متعددة عن معنى واحد فإن الاستجابة نفسها تحدث في جميع الأحوال، وقد ثبت مختبرياً ويؤيده مجرى الحياة اليومية، فعندما أصبحت كلمة (path) الانكليزية في إحدى التجارب منبهاً شرطياً يستثير استجابة شرطية معينة ثم استبدلت بكلمة أخرى تحمل المعنى نفسه ولكنها

---

(1) ينظر : علم الدلالة، أحمد مختار عمر : 18 . 19، علم الدلالة والمعجم العربي : 21 . 22، 31 . 32.

(2) ينظر : اللغة والفكر : 56.

(3) المرجع نفسه : 78.

تختلف عنها تلفظاً وكتابة مثل كلمة (road) أو كلمة (street) فإنّ الاستجابة بإزائها لم تتبدل...، وهذا هو الذي تفتقر إليه الحيوانات الراقية،(والببغاء) التي تتدرب على سماع بعض الكلمات والاستجابة لها ؛ وذلك لأنّ الكلمة عندها مجرد صوت (sound) أعجم لا تفقه معناه اللغوي ولا تستجيب إلا له وإذ تغير استحالت عليها الاستجابة له [1].

ويذكر نوري جعفر في موضع آخر موازناً بين استجابة الحيوان واستجابة الإنسان للألفاظ والكلمات((فالكلب المدرب على الجلوس عند سماع كلمة place الانكليزية يجلس أيضاً عند سماع كلمة pace، case، space، Brace ذات الأصوات المتشابهة وإن اختلف معناها . كما . لا يجلس مطلقاً عند سماعه كلمة sit مثلاً لأنها تختلف في الصوت وإن تشابهت في المعنى، معنى هذا أنّ صفة المنبه السمعية المباشرة هي وحدها التي تقرر نوع الاستجابة الفعلية عند الحيوان، في حين أنّ الوضع يختلف اختلافاً جذرياً عند الإنسان ذلك لأنّ الكلمة المنطوق بها أو المكتوبة هي الدرجة الأولى والأهم عند إشارة مجردة لفظية إلى شيء آخر بصرف النظر عن الصوت الذي تحمله أو الصورة الكتابية التي تنطوي عليها ؛ ولهذا فإنّ الاستجابة الشرطية التي تتكون عنده إزاء كلمة معينة لا تستثار عند سماعه كلمة أخرى تشبهها في الصوت ولكنها تخلف عنها في المعنى، والعكس صحيح أيضاً أي أن يستجيب استجابة مماثلة لكلمات متماثلة المعنى وإن اختلفت أصواتها، ويصدق الشيء نفسه على الكلمات المكتوبة أيضاً التي ينقلها المحلل البصري. كما . يصدق أيضاً على الكلمات التي ينقلها المحلل اللمسي tactile عند العميان مثلاً الذي يقرأون باللمس أو الأشخاص الآخرين الذين تكتب الكلمة باليد على راحة أكفهم، وهذا كله يدل على أنّ الشيء الحاسم عند الإنسان في مسألة هو المحتوى أو المعنى semantic الذي تحمله الإشارة اللفظية المنطوق بها أو المكتوبة)) [2]. أما ما يخص اللغة والفكر ، فإنّ العلاقة بين اللفظ والمعنى تكتسب منحى جدلياً،إذ قال نوري جعفر : ((وقد ثبت بشكل لا يقبل الجدل أو الشك أنّ الشخص الذي يقوم بعمل عقلي معين مثل حل مسألة رياضية أو تذكر بيت من الشعر يتحدث أيضاً مع نفسه دون أن ينطق بالكلام الجهوري معنى هذا أنّ العمليات الذهنية تصاحبها دائماً إثارات معينة في أعضاء الكلام وفي جهاز التنفس عموماً بمقدار ارتباطه بالتلفظ وخاصة في الحنجرة، وسقف الفم وباللسان والشفتين، وهذا يدل على أنه لا يمكن حدوث عملية التفكير من دون الكلام...، أي أنّ الفكر لا يصبح واقعاً محسوساً قابلاً للصوغ والتداول إلا عبر الكلمات وأنه بدون اللغة يصبح خادماً غير قابل للتداول، فاللغة إذن وعاء الفكر أو أدواته المادية)) [3].

إذن يتضح لنا من هذا أنّ اللغة أداة حدوث الفكر ووسيلة تداوله ونقله عبر الأجيال خاصة عن طريق الكتابة، وأنه من غير الممكن أن يعبر المرء عن فكره المجرد بأي شكل آخر أو بغير طريق الكلمات، وعلى هذا فإنّ علاقة اللغة والفكر علاقة عضوية متينة.

---

(4) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(1) اللغة والفكر: 80 . 81.

(2) المرجع نفسه : 104.

ولما كانت الألفاظ المنطوقة أو المكتوبة ظواهر مادية محسوسة فإنّ معانيها أو الأفكار التي حملها أو الصور الذهنية التي تعبر عنها أو تشير إليها أو تدل عليها ظواهر لا مادية، إذ بين نوري جعفر : ((أن الكلمات تفقد جوهرها الفكري إذا اعتبرناها مجرد أصوات أو رموز مكتوبة ؛ لأنّ أهميتها الفكرية تكمن في أنها تنقل ذهن السامع أو القارئ إلى أشياء أخرى تختلف عن وجودها المادي المحسوس، فالفكر إذن يأخذ منطلقه من معاني الكلمات))[1]. وعلى هذا ينكر فكرة عزل الصوت أو الرمز المكتوب عن المعنى ؛ لأنّ ذلك يخل بالوظيفة الجوهرية للكلام وهي الاتصال الفكري، إذ يقول : ((لأنّ هذا التبضيع يعزل الوظيفة الاجتماعية للغة من حيث هي أداة الاتصال الفكري بين أفراد المجتمع عن وظيفتها الفكرية الملتحمة بوظيفة الاتصال الاجتماعي ويفكك عرى الروابط العضوية النشوئية أو التطورية التي نشأت بينهما)) [2]. وقد نتج عن هذا العزل، المبدأ اللغوي المغلوط الذي يرى أنّ علم الأصوات علم مستقل عن علم المعاني، إلا أنّ المعنى يمثل ظاهرة لغوية تعبيرية ؛ لأنه يعبر عن الصورة الذهنية على هيأة تجريد وتعميم تحملها الأصوات والرموز المكتوبة، أي المعنى من هذه الناحية عملية فكرية دون منازع [3] ثم يبيّن ذلك معتمداً على قول العالم الروسي مايكونزكي الذي يشبه اللغة والفكر بدائرتين متقاطعتين يطلق على مناطق التقاطع اسم الفكر اللفظي أو الفكر المعبّر عنه بالألفاظ، أي لابد لوجوده من كلمات تحمله وتسمح له بإبراز نفسه [4].

وقد أوضح نوري جعفر أطروحاته حول النظريات التي تفسر صلة اللغة والفكر وهي ما يأتي :

أولاً : نظرية العزل المطلق بين اللغة والفكر، ونكران وجود أي أثر لأحدهما في الآخر، وهي أقدم النظريات ويمثلها في الوقت الحاضر الفيلسوف الفرنسي بيركسون ومفادها : انتفاء وجود أية رابطة أو علاقة أو صلة بين اللغة والفكر لاختلافهما من وجهة النظر هذه في الطبيعة والوظيفة [5].

وقد نقد هذه النظرية، إذ يقول : ((لقد أحدثت نظرية عزل اللغة عن الفكر التي حصرت اللغة بالأصوات المتحدث بها وبالرموز المكتوبة واعتبرت كلاً من اللغة والفكر مستقلاً عن زميله أضرارا بالغة في دراسة جانب اللغة الصوتي وجانب المعنى : فدرست أصوات الكلمات بمعزل عن معانيها أو دلالاتها أو ارتباطاتها بالفكر . كما . درست من الجهة الثانية تلك المعاني المجردة باعتبارها فكراً لا يرتبط بأصوات الكلمات ورموزها الكتابية، وهذا تقطيع مصطنع لأوصال اللغة المتماسكة يسيء إلى طبيعة اللغة بمعناها الإنساني الاجتماعي الذي يتضمن...، تلاحم أصوات الكلمات وإشاراتها المكتوبة بمعانيها التي لا يمكن عزلها عنها دون الإساءة إليها، وقد نتج عن ذلك العزل المبدأ اللغوي المغلوط الذي مفاده أنّ علم الأصوات علم مستقل في حد

---

(3)المرجع نفسه : 123.

(1) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(2) ينظر : المرجع نفسه : 127.

(3) ينظر : المرجع نفسه: 136.

(4) ينظر : اللغة والفكر : 122.

ذاته ومنعزل عن علم المعاني وأنّ العلاقة بينهما علاقة آلية خارجية عارضة مؤقتة مما أدى إلى دراسة هذين العلمين المتلاحمين أو هذا العلم الواحد بجانبيه بالطريقة الكلاسيكية القديمة)) (1).

ثانياً : نظرية انصهار أو ذوبان الفكر باللغة التي يعد وتسن عالم النفس الأمريكي أول من صاغها في علم النفس بشكلها الحديث، ومفادها : انتفاء وجود فكر مستقل قائم في حد ذاته بمعزل عن اللغة أي أنّ الفكر لغة صامتة يتحدث بها المرء مع نفسه أو لغة خفية خالية من الصوت (2).

وذكر نوري جعفر أنّ الطفل يمر على ما يقول أصحاب هذه النظرية في مجرى نموه اللغوي، بثلاث مراحل هي :

1. مرحلة الكلام الجهوري الموجه نحو الآخرين أو اللغة التي يستمر على استعمالها طوال حياته تحدثاً وكتابة وقراءة.

2. مرحلة الهمس القصير الأمد التي يضطر فيها الطفل أحياناً على أن يهمس في إحدى أذني غيره عندما يريد التعبير عن نفسه، والهمس هو الوجه الآخر من وجهي الكلام الموجه إلى الآخرين.

3. مرحلة الكلام الخفي الذي يوجهه الطفل إلى نفسه في مرحلة من مراحل نموه أو مرحلة التحدث مع النفس بلغة صامتة وهي مرحلة نشوء الفكر.

وعقب على هذا بقوله إن الفكر إذا كان لغة صامتة فلا يبقى أي وجود لعلاقته باللغة،أي أنّ العلاقة بين اللغة والفكر تفقد وجودها(3).

ثالثاً : نظرية استقلال الفكر عن اللغة استقلالاً نسبياً مع تلاحمه العضوي بها والأثر المتبادل بينهما ويمثلها عالم النفس السوفيتي فايكوتيزكي، وملخصها(4) :

إنّ اللغة وإن كانت غير الفكر من حيث طبيعتها ووظيفتها ومن ناحية نشوئها التاريخي إلا أنها مع ذلك ملتحمة به التحاماً عضوياً غير قابل للعزل في مجرى تطور النوع الإنساني وضمن حدود تطور الفرد من المهد إلى اللحد، ومع أنّ هذا الالتحام أو الاندماج ليس بذي جذور فسلجية فطرية في الأصل فان جذوره تاريخية نشوئية على الصعيدين الفردي والنوعي على حد سواء، وعلى هذا فإنّ اللغة والفكر جانبان مشتركان ملتحمان ومتكاملان وإن كانا متميزين في عملية واحدة أو كيان متماسك موحد

أوضح نوري جعفر أنّ اللغة تعين الإنسان على تجسيد فكره أو بلورته وصوغه وتداوله ولولاها لاستحال ذلك، والفكر بدوره يعين اللغة على الدقة ويثريها بالمصطلحات (5).

وذكر أنّ معنى الكلمة يعد رابطة التلاحم العضوي بين الفكر والرمز التي تشير إليه تلفظاً وكتابة ؛ لأنّ المعنى ظاهرة لغوية وفكرية في آن واحد، فالصوت المنطوق به دون معنى هو صوت أجوف مبهم أو أعجم لا

---

(5) المرجع نفسه : 124.

(6) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(1) ينظر : المرجع نفسه : 126.

(2) ينظر : اللغة والفكر : 127.

(3) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

يدخل في حيز اللغة، والمعنى من هذه الزاوية ظاهرة لغوية تعبيرية ؛ لأنه يعبر عن الصورة الذهنية على هيأة تجريد وتعميم تحملها الأصوات والرموز المكتوبة[1].

وأشار إلى أنّ معاني الكلمات تتسع وتتطور مع بقاء تركيبها الصوتي والكتابي ثابتاً من حيث الأساس، وشبه الدكتور اللغة والفكر . كما ذكرت سابقاً . على ما يقول فايكوتزكي بدائرتين متقاطعتين وأن نطلق على مناطق التقاطع اسم (الفكر اللفظي) أو الفكر المعبر عنه بالألفاظ،أي الذي لابد لوجوده من كلمات تحمله وتسمح له بإبراز نفسه[2] ، وأنّ هناك أنماطاً من الفكر لا علاقة مباشرة لها باللغة منها مثلاً : الفكر العملي الذي يعبر عن نفسه باستعمال الأدوات المادية، وكذلك بالعكس أنّ هناك أنماطاً من الكلام غير فكرية المحتوى خاصة عند التعبير عن الحالات الانفعالية وعند ترديد الشخص ترديداً آلياً ألفاظاً معينة وعبارات في بعض المهن أو لأغراض تجريبية، كل هذا يدل على أنّ الفكر الذي لا يعبر عن نفسه بالكلمات لا يدخل في إطار ذوبان الفكر باللغة، وأنّ الكلام الذي لا يرتبط ارتباطاً مباشراً بالفكر هو خارج نطاق اللغة.وعلى هذا فقد نقد نوري جعفر هذه النظرية من حيث أنّ تلاحم الفكر باللغة ظاهرة محدود المدى تعبر عن نفسها في الفكر اللفظي فقط، وأنّ اللغة تنفصل عن الفكر ووجوه النشاط الاجتماعي الأخرى[3].

وفي ختام بحثنا هذا سنذكر ما أورده نوري جعفر من مفاهيم مبثوثة في كتابه (اللغة والفكر)، لهذه المصطلحات : اللغة، والفكر ، والكلمة، والمعنى، وهي على النحو الآتي :

أ . اللغة :

. احتلت اللغة منذ نشوئها وفي مجرى تطورها المكان الأول والأهم في علاقات الإنسان مع البيئة المحيطة [4].

. اللغة أهم مميزات الإنسان الاجتماعية[5].

ـ إنّ اللغة من حيث هي ظاهرة اجتماعية تم نشوؤها في مجرى نشاط الإنسان الاجتماعي وفي زخم مغالبة الطبيعة[6].

. إنّ وظيفة اللغة الأساسية من حيث أداة التفكير والتعبير هي التعميم الذي هو نقل الخبرة الإنسانية والمعرفة عبر الأجيال المتعاقبة[7].

. ولا شك في أنّ نشوء الإدراك عبر اللغة أدى إلى جعل الفكر يتصف بالقدرة على الخلق والابتكار [8].

. تؤدي اللغة الدور الحاسم في نشوء عقل الطفل وتطوره عندما يبدأ بالتقاط الكلمات من المجتمع الذي يعيش فيه بوصفها أداة فكرية موضوعية [1].

---

(4) ينظر : المرجع نفسه : 127

(5) ينظر : المرجع نفسه : 136.

(1) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(2) ينظر : اللغو والفكر : 56.

(3) ينظر : المرجع نفسه : 57.

(4) ينظر : المرجع نفسه : 57 . 58 .

(5) ينظر : المرجع نفسه : 59.

(6) ينظر : المرجع نفسه: 60 .

. اللغة هي في الأساس وسيلة تجسيد الفكر ذاته ونقله وتداوله بين الناس في التحدث والكتابة(2).

- إنّ اللغة وسيلة أو أداة اجتماعية وإنّ الكلمات المنطوق بها والمكتوبة واسطة نقل المعرفة تحدثاً وبالكتابة عن طريق عمليتي السمع والبصر وجهاز النطق(3).

. إنّ اللغة هي وسيلة الاتصال الفكري الوحيد بين الناس (4).

- إنّ اللغة عامل مهم في تنظيم سلوك الإنسان وتنسيق تصرفاته وتحريره من الخضوع (كالحيوانات) للمنبهات الآنية الحسية السريعة المباشرة (5).

ب . الفكر :

. الفكر أحد العمليات أو الوظائف العقلية أو المخية التي تشمل أيضاً الذاكرة والانتباه والخيال واللغة(6).

- إنّ الفكر وظيفة الدماغ غير أنّ الدماغ ليس هو في حد ذاته مصدر الفكر أو عامل حدوثه بل هو أداة ذلك الحدث (7).

- إن مصدر الفكر هو العالم المحيط بالإنسان أو بيئته الطبيعية والاجتماعية، وطبيعة الفكر نفسه ليست مادية ولكنها نسخة منها أو انطباع عنها، غير أنّ هذا الانطباع ليس ذا طبيعة فوتوغرافية بل هو صورة ذهنية (8).

. الفكر في جوهره عملية فسلجية مخية تمارسها القشرة المخية على شكل موازنة بين الانطباعات الآتية من البيئة المحيطة الجغرافية والاجتماعية عبر أعضاء الحس بالاستناد إلى اللغة والمعرفة وإصدار أحكام عليها واستنباط نتائج إيجابية أو سلبية منها(9).

- إنّ الفكر يصوّر الظواهر البيئية أو يسجلها مع ارتباطاتها الفعلية الموضوعية وقوانينها على صفحة المخ ويساعد الإنسان على فهمها والسيطرة عليها (10).

. الفكر نشاط ذهني ناقد أو فاحص ممحص يستبعد القيام بعمل طائش أي أنه يتريث ويستقصي ويستلزم نشوء رجع مؤجل أو استجابة تبقى في الذهن إلى أن تستوفي شروطها الموضوعية اللازمة لتخرج إلى حيز الوجود على هيأة تصرف يقوم به الفرد(11).

ج . الكلمة :

---

(7) ينظر : المرجع نفسه : 67 .

(8) ينظر : المرجع نفسه : 127.

(8) ينظر : المرجع نفسه : 153.

(9) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(10) ينظر : المرجع نفسه : 98.

(1) ينظر : المرجع نفسه : 99.

(2) ينظر : اللغة والفكر : 99.

(3) ينظر : المرجع نفسه : 106.

(4) ينظر : المرجع نفسه : 127.

(5) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(6) ينظر : المرجع نفسه : 154 .

. أما الكلمة من حيث هي رسم مكتوب أو صوت منطوق به فهي ظاهرة لغوية إذا نظرنا لها من حيث كونها الأداة الاجتماعية التي تحمل الفكر وتجسده[1].

. فالكلمة إذن كيان واحد متماسك فكري وأداة في الوقت نفسه تعبر عن الفكر على هيأة صوت ورموز مكتوبة أي أنّ الكلمة بالتعبير الكيمياوي جزئ اللغة [2].

. الكلمة تجريد وتعميم من حيث معناها أي أنّ المعنى جزء لا يتجزأ من الكلمة [3].

. فالكلمة فكر ملتحم بالصوت يشير إليه ورمز مكتوب يدل عليه[4].

. إنّ الكلمة المنطوق بها أو المكتوبة هي بالدرجة الأولى والأهم عند الإنسان إشارة مجردة لفظية إلى شيء آخر بصرف النظر عن الصوت الذي تحمله أو الصورة الكتابية التي تنطوي عليها [5].

. الكلمة بالتعبير الفسلجي تصبح منبهاً متفوقاً، أي أنها تنظم خبرة الإنسان المباشرة إذ يكون دورها في نشوء العمليات العقلية العليا بالغ الأهمية، إنّ باستطاعة الكلمة التغلب على نشاط المنظومة الحسية الإشارية , وإبطال مفعولها وعلى هذا الأساس يصبح بإمكان اللغة أن تطمس آثار الدوافع البيولوجية الفطرية جميعها عند الإنسان أو تبطل مفعولها أو تحولها إلى نقيضها، وهذا هو الذي يجعل مفعول الكلمة يتغلغل عميقاً في مشاعر الإنسان [6].

د . المعنى :

. المعنى ظاهرة لغوية وفكرية في آن واحد[7].

. المعنى ظاهرة لغوية تعبيرية ؛ لأنه يعبر عن الصورة الذهنية على هيأة تجريد وتعميم [8].

. المعنى عملية فكرية دون منازع[9].

. إنّ الشيء الحاسم عند الإنسان في مسألة اللغة هو المحتوى أو المعنى الذي تحمله الإشارة اللفظية المنطوق بها أو المكتوبة[10].

---

(7) ينظر : المرجع نفسه : 128.

(8) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(9) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(10) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(1) ينظر : المرجع نفسه : 81.

(2) ينظر : اللغة والفكر : 154.

(3) ينظر : المرجع نفسه : 127.

(4) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(5) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(6) ينظر : المرجع نفسه : 81 .

. الشيء المهم في جميع الإشارات والعلامات بما فيها الكلمات معناها وليس كيانها المادي الحسي (الأصوات أو الرموز الكتابية) [1].

(أهداف البحث)

لكل بحث أهداف يروم كاتبا البحث الوصول إليها من خلال بحثهما هذا ما يأتي :

1. كشف البحث عن فكر نوري جعفر في تفسير نشأة اللغة البشرية فسلجياً من خلال التطورات التي حدثت في أعضاء النطق المختلفة وكذلك التطورات المخية التي حدثت في قشرة الدماغ ولاسيما في المناطق المسؤولة عن الوظائف اللغوية، صوتاً، وإشارات، وعلامات، وكذلك العلاقة بين المنظومة الإشارية الأولى، المسؤولة عن الحواس والمنظومة الإشارية الثانية المسؤولة عن اللغة التي ينفرد بها الإنسان.

2. بيّن البحث أنّ اللغة البشرية لم تصل إلى ما وصلت إليه من تكامل في التجريد والتعميم إلا بفضل العلاقات الفسلجية التي تربط الحواس وأعضاءها والمراكز المخية ووظائفها من جهة والبيئة الطبيعية والاجتماعية من جهة أخرى.

3. عرض البحث علاقة علم الأصوات (جهاز النطق وتطوراته) بعلم الفسلجية والتي لها أثر في تكوين الأصوات من خلال تطورات أعضاء النطق.

4. درس البحث موقف المعنى من الناحية الفسلجية، فقد تبين أن العلاقة بين اللفظ والمعنى بمنظورين، الأول : العلامات والإشارات والرموز التي ينفرد الإنسان بها، والآخر : اللغة والفكر.

5. كشف البحث أنّ ما جاء به نوري جعفر يندرج تحت فرع من فروع علم اللسانيات، يسمى علم اللسانيات البايولوجي القائم على الكشف عن العلاقة بين الوظائف اللغوية والوظائف المخية أو الدماغية، إذ انّ هذا الكشف يفتح أبواباً واسعة لتفسير كثير من الظواهر اللغوية عند الإنسان منذ الطفولة ووضع الحلول المناسبة لها ولاسيما في حقلي التربية والتعليم.

وأخيراً نقول : إنّ ما جاء به نوري جعفر لكي يكون أكثر إقناعاً وعلمية من النظريات اللغوية والصوتية التي تناولت موضوع نشأة اللغة وموضوع الأصوات اللغوية تحتاج إلى معرفة شيئين :

الأول : معرفة تكوين جهاز النطق عند آدم . ع . ؛ لأنه أول من تكلم باللغة البشرية.

والآخر : هذه النظرية لم تفسر لنا كيفية نطق عيسى . ع . وهو في المهد، إذ قال تعالى في كتابه المجيد : [**إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ{45} وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ**][2]، ويمكن أن يردّ هذا على أنه إعجاز.

والحق يقال هنا إنّ ما توصل إليه جدير بالدراسة والبحث ولاسيما في حقل الدراسات اللغوية بقطع النظر عما يقال عن موضوع نشأة اللغة وموضوع الأصوات اللغوية.

المصادر والمراجع

. القرآن الكريم.

---

(7) ينظر : المرجع نفسه : 51.

(1) سورة آل عمران : 45 . 46.

- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني (ت392هـ)، تح : محمد علي النجار، ط4، الهيأة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1999م .
- دراسات في فقه العربية، د. صبحي الصالح، مطبعة دار العلم للملايين، بيروت . لبنان، ط10، 1983م.
-دراسة الصوت اللغوي، د.أحمد مختار عمر، (د. ط)، مطبعة النموذجية للأوفسيت، الناشر عالم الكتب، القاهرة، 1418هـ . 1998م.
-الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامه، أبو الحسين أحمد بن زكريا بن ع(د.ت)
-علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر، ط1، مطبعة مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع الكويت، 1402هـ . 1989م.
-علم الدلالة والمعجم العربي، د. عبد القادر أبو شريفة، ود. حسين لافي، ود. داود غطاشة، مطبعة دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، 1989م.
-علم اللغة العام (الأصوات)، د. كمال بشر، ط5، دار المعارف القاهرة، 1979م.
-فقه اللغة في الكتب العربية القديمة، د. عبده الراجحي، دار النهضة العربية، بيروت، 1979م.
-في علم اللغة، د. محمد محيي الدين أحمد، مطبعة مكتب الآداب، القاهرة، 2001م.
-في علم اللغة العام، د. عبد الصبور شاهين، ط3، بيروت، 1980 م.
-كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المتقي الهندي (ت975هـ)، تح الشيخ بكري الحياني، والشيخ صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، لبان، (د.ت).
-اللغة والفكر، د. نوري جعفر، مطبعة مكتبة التومي، الرباط، المغرب، ط1، 1971م .
-معجم المؤلفين والكتاب لعراقيين 1970م . 2000م، د. صباح نوري المرزوك، ط1، مطبعة بيت الحكمة، بغداد . العراق، 2002م.
-موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين، حميد المطبعي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1998م.
-نظريات في اللغة، أنيس فريحة، مصر، ط1، 1973م.

- **الدوريات :**

* جريدة المؤتمر، نوري جعفر، 2009/2/19 م.

يدخل في حيز اللغة، والمعنى من هذه الزاوية ظاهرة لغوية تعبيرية ؛ لأنه يعبر عن الصورة الذهنية على هيأة تجريد وتعميم تحملها الأصوات والرموز المكتوبة[1].

وأشار إلى أنّ معاني الكلمات تتسع وتتطور مع بقاء تركيبها الصوتي والكتابي ثابتاً من حيث الأساس، وشبه الدكتور اللغة والفكر . كما ذكرت سابقاً . على ما يقول فايكوتزكي بدائرتين متقاطعتين وأن نطلق على مناطق التقاطع اسم (الفكر اللفظي) أو الفكر المعبر عنه بالألفاظ،أي الذي لابد لوجوده من كلمات تحمله وتسمح له بإبراز نفسه[2] ، وأنّ هناك أنماطاً من الفكر لا علاقة مباشرة لها باللغة منها مثلاً : الفكر العملي الذي يعبر عن نفسه باستعمال الأدوات المادية، وكذلك بالعكس أنّ هناك أنماطاً من الكلام غير فكرية المحتوى خاصة عند التعبير عن الحالات الانفعالية وعند ترديد الشخص ترديداً آلياً ألفاظاً معينة وعبارات في بعض المهن أو لأغراض تجريبية، كل هذا يدل على أنّ الفكر الذي لا يعبر عن نفسه بالكلمات لا يدخل في إطار ذوبان الفكر باللغة، وأنّ الكلام الذي لا يرتبط ارتباطاً مباشراً بالفكر هو خارج نطاق اللغة.وعلى هذا فقد نقد نوري جعفر هذه النظرية من حيث أنّ تلاحم الفكر باللغة ظاهرة محدود المدى تعبر عن نفسها في الفكر اللفظي فقط، وأنّ اللغة تنفصل عن الفكر ووجوه النشاط الاجتماعي الأخرى[3].

وفي ختام بحثنا هذا سنذكر ما أورده نوري جعفر من مفاهيم مبثوثة في كتابه (اللغة والفكر)، لهذه المصطلحات : اللغة، والفكر، والكلمة، والمعنى، وهي على النحو الآتي :

أ . اللغة :

. احتلت اللغة منذ نشوئها وفي مجرى تطورها المكان الأول والأهم في علاقات الإنسان مع البيئة المحيطة [4].

. اللغة أهم مميزات الإنسان الاجتماعية[5].

- إنّ اللغة من حيث هي ظاهرة اجتماعية تم نشوؤها في مجرى نشاط الإنسان الاجتماعي وفي زخم مغالبة الطبيعة[6].

. إنّ وظيفة اللغة الأساسية من حيث أداة التفكير والتعبير هي التعميم الذي هو نقل الخبرة الإنسانية والمعرفة عبر الأجيال المتعاقبة[7].

. ولا شك في أنّ نشوء الإدراك عبر اللغة أدى إلى جعل الفكر يتصف بالقدرة على الخلق والابتكار [8].

. تؤدي اللغة الدور الحاسم في نشوء عقل الطفل وتطوره عندما يبدأ بالتقاط الكلمات من المجتمع الذي يعيش فيه بوصفها أداة فكرية موضوعية [1].

---

(4) ينظر : المرجع نفسه : 127

(5) ينظر : المرجع نفسه : 136.

(1) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(2) ينظر : اللغو والفكر : 56.

(3) ينظر : المرجع نفسه : 57.

(4) ينظر : المرجع نفسه : 57 . 58 .

(5) ينظر : المرجع نفسه : 59.

(6) ينظر : المرجع نفسه: 60 .



تختلف عنها تلفظاً وكتابة مثل كلمة (road) أو كلمة (street) فإنّ الاستجابة بإزائها لم تتبدل...، وهذا هو الذي تفتقر إليه الحيوانات الراقية،(والببغاء) التي تتدرب على سماع بعض الكلمات والاستجابة لها ؛ وذلك لأنّ الكلمة عندها مجرد صوت (sound) أعجم لا تفقه معناه اللغوي ولا تستجيب إلا له وإذ تغير استحالت عليها الاستجابة له [1].

ويذكر نوري جعفر في موضع آخر موازناً بين استجابة الحيوان واستجابة الإنسان للألفاظ والكلمات((فالكلب المدرب على الجلوس عند سماع كلمة place الانكليزية يجلس أيضاً عند سماع كلمة case،pace، space، Brace ذات الأصوات المتشابهة وإن اختلف معناها . كما . لا يجلس مطلقاً عند سماعه كلمة sit مثلاً لأنها تختلف في الصوت وإن تشابهت في المعنى، معنى هذا أنّ صفة المنبه السمعية المباشرة هي وحدها التي تقرر نوع الاستجابة الفعلية عند الحيوان، في حين أنّ الوضع يختلف اختلافاً جذرياً عند الإنسان ذلك لأنّ الكلمة المنطوق بها أو المكتوبة هي الدرجة الأولى والأهم عند إشارة مجردة لفظية إلى شيء آخر بصرف النظر عن الصوت الذي تحمله أو الصورة الكتابية التي تنطوي عليها ؛ ولهذا فإنّ الاستجابة الشرطية التي تتكون عنده إزاء كلمة معينة لا تستثار عند سماعه كلمة أخرى تشبهها في الصوت ولكنها تخلف عنها في المعنى، والعكس صحيح أيضاً أي أن يستجيب استجابة مماثلة لكلمات متماثلة المعنى وإن اختلفت أصواتها، ويصدق الشيء نفسه على الكلمات المكتوبة أيضاً التي ينقلها المحلل البصري. كما . يصدق أيضاً على الكلمات التي ينقلها المحلل اللمسي tactile عند العميان مثلاً الذي يقرأون باللمس أو الأشخاص الآخرين الذين تكتب الكلمة باليد على راحة أكفهم، وهذا كله يدل على أنّ الشيء الحاسم عند الإنسان في مسألة هو المحتوى أو المعنى semantic الذي تحمله الإشارة اللفظية المنطوق بها أو المكتوبة)) [2]. أما ما يخص اللغة والفكر، فإنّ العلاقة بين اللفظ والمعنى تكتسب منحى جدلياً،إذ قال نوري جعفر : ((وقد ثبت بشكل لا يقبل الجدل أو الشك أنّ الشخص الذي يقوم بعمل عقلي معين مثل حل مسألة رياضية أو تذكر بيت من الشعر يتحدث أيضاً مع نفسه دون أن ينطق بالكلام الجهوري معنى هذا أنّ العمليات الذهنية تصاحبها دائماً إثارات معينة في أعضاء الكلام وفي جهاز التنفس عموماً بمقدار ارتباطه بالتلفظ وخاصة في الحنجرة، وسقف الفم وباللسان والشفتين، وهذا يدل على أنه لا يمكن حدوث عملية التفكير من دون الكلام...، أي أنّ الفكر لا يصبح واقعاً محسوساً قابلاً للصوغ والتداول إلا عبر الكلمات وأنه بدون اللغة يصبح خادماً غير قابل للتداول، فاللغة إذن وعاء الفكر أو أدواته المادية)) [3].

إذن يتضح لنا من هذا أنّ اللغة أداة حدوث الفكر ووسيلة تداوله ونقله عبر الأجيال خاصة عن طريق الكتابة، وأنه من غير الممكن أن يعبر المرء عن فكره المجرد بأي شكل آخر أو بغير طريق الكلمات، وعلى هذا فإنّ علاقة اللغة والفكر علاقة عضوية متينة.

---

(4) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(1) اللغة والفكر: 80 . 81.

(2) المرجع نفسه : 104.

وكذلك من معطيات النظرية الفسلجية . كما ذكرت سابقاً . تفسر علاقة المشي واستعمال الحواس وتطور الحواس السمعية والبصرية، وانتصاب القامة وتطور القدمين واليدين ولاسيما موقع الإبهام من أصابع اليد واتساع وظائفه، بنشأة الكلام وتطوره[1].

وأشار نوري جعفر إلى أنّ ظهور اللغة عند الإنسان أدى إلى حدوث تطور لاحق في أجهزة الجسم المتعلقة به، إذ إنّ نشوء الكلام البيّن الواضح أو المنمق كان عاملاً في تطور عضلات الوجه وتعبيراته أو قسماته[2].

رابعاً : محتوى اللغة من الناحيتين الفسلجية والسايكولوجية :

ويتمثل محتوى اللغة الذي قصده نوري جعفر في ثلاثة أمور هي :

الأمر الأول : لغة الإشارات :

إذا كان المقصود باللغة البشرية ((أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم))[3]، أو ((كل لفظ وضع لمعنى)) [4] ، فإنّ الطبيعة الجامدة أو الحية تتكلم أيضاً : فالسحاب مثلاً يشير إلى المطر، والرياح تتكلم عن اقتراب العاصفة، وانحناء أعضاء الأشجار يشير إلى هبوب النسيم، والدخان يدل على النار .

بمعنى آخر أنّ المعنى (الدلالة) هو أساس المنظومة الإشارية الحسية التي ينفرد الإنسان وحده بها لا كيانها المادي الحسي. وذكر لنا أمثلة لتوضيح ذلك، فمنها[1] : لو أنّ شخصاً يلوح من بعيد بإحدى يديه بشكل يثير الاهتمام، فإذا وقف من ينظر إليه موقف غير المعني به فإنّ هذا التلويح يصبح عنده مجرد حركة في الهواء الملامس غير ذات أهمية أو دلالة أو مغزى، أما إذا أعطي ذلك التلويح باليد عناية من ينظر إليه وأصبح ذا دلالة عنده فإنه يقف موقف المعني بتفسير معناها، فيسأل نفسه : أ هذا الشخص يستغيث ؟ أم أنه يحذر من خطر محدق ؟ فيقترب منه في الحالة الأولى لإغاثته ويبتعد عنه في الحالة الثانية لتفادي الخطر المحتمل الذي يحذره منه، ومعنى هذا أنه يختار أحد موقفين متنافرين إزاء ذبذبات في الهواء متماثلة من الناحية المادية ومثال آخر مأخوذ من الحياة التعليمية[2] : إنّ صوت الجرس الذي يسمعه الطلاب في بداية كل درس من الدروس في أثناء اليوم المدرسي المعتاد يعني دخولهم إلى قاعات الدرس لتلقي الدروس، والصوت نفسه يسمعونه عند نهاية كل درس يعلن الخروج من تلك القاعات وانتهاء عملية التلقي الذهني والانصراف إلى الراحة المؤقتة وتبادل قاعات الدرس والمدرسين، أي أنّ الطلاب والمدرسين يقفون موقفين معارضين إزاء ذبذبات صوتية في الهواء متماثلة من الناحية الفيزيائية.

وفي ضوء ما تقدم، قال نوري جعفر : ((إنّ المتخاطبين بالإشارات يستعملون إشارات متماثلة في تركيبها أو مظهرها إلا أنّ الاتصال بينهم لا يتم بسبب ذلك بل بفعل المعنى المتفق عليه الذي يستنبطونه منها، وفي حالة فقدان الاتفاق على معنى مشترك مستمد من إشارات متماثلة في مظهرها الخارجي فإنّ التفاهم لا يتم وينقطع الاتصال الفكري بين المتخاطبين، وقد يحصل هذا أيضاً في الألفاظ الكلامية التي تحمل أكثر من معنى، حتى في الكلمات التي تحمل معنى محدداً ولكن ترافقها في أثناء الكلام إشارات معينة باليد أو الوجه، وقد تحمل الكلمة خلاف معناها أحياناً . كما . يحدث مثلاً : في حالة المجاز أو الكلام المبطن باللغة الدارجة، وفي حالة التعابير السخرية أو التهكم أو الغمز))[3]. وعلى هذا اتخذ أنه لابد في لغة الإشارات وفي لغة التخاطب بالكلمات من توافر شخصين على الأقل أحدهما الذي تصدر عنه الإشارة والآخر الذي توجه الإشارة إليه، وأنّ هذه الإشارة لا تتحول أداة اتصال فكري (لغة) بينهما إلا إذا فهمها الشخص الآخر بالمعنى الذي يقصده الأول، وكيّف سلوكه على وفق ذلك، أما إذا فسر معناها على وجه آخر فإنّ الصلة الفكرية تتقطع بينهما ولم تعد الإشارة أداة اتصال [4].

الأمر الثاني : لغة الرموز :

تؤلف الرموز اللغوية المتحدث بها (الأصوات التي تنقلها حاسة السمع)، والرموز المكتوبة (المرئية التي تنقلها حاسة البصر)، هذا ما يسميه علماء الفسلجة المنظومة الإشارية الثانية التي ينفرد بها الإنسان

---

(1) ينظر : المرجع نفسه : 52 . 53

(2) ينظر : المرجع نفسه: 53 . 54.

(3) اللغة والفكر : 54.

(4) ينظر : المرجع نفسها والصفحة نفسها .

وحده[1]. وبهذا فإنّ الإنسان ينفرد دون سائر الحيوانات الراقية بأنه يمتلك فضلاً عن منظومة الإشارات الحسية التي يشترك فيها مع الحيوانات الراقية، منظومة إشارية كلامية نشأت بعد المنظومة الحسية تأريخياً وبالاستناد إليها وبالعمل جنباً إلى جنب معها، إذ ذكر نوري جعفر أنّ اللغة احتلت منذ نشوئها وفي مجرى تطورها المكان الأول والأهم في علاقات الإنسان مع البيئة المحيطة، وأخذت الكلمات بمرور الزمن تعبر عن الإشارات الحسية جميعها وتحل محلها الاستجابات الفسلجية التي تستثيرها مسمياتها : فكلمة (ليمون حامض) أو (سمك) أو (أب) أو (مدرس)،....، تحل في أثناء الحديث والقراءة محل الشيء المادي الذي تعبر عنه، والألفاظ اللغوية التي تعبر عن نفسها على شكل رموز صوتية أو مكتوبة أوجدها الإنسان نفسه في مجرى تأريخه الطويل لتنظيم حياته الاجتماعية[2].

وحرص نوري جعفر على ((أنّ قيمة الرموز اللغوية الصوتية والسمعية تكمن في معناها أو دلالتها أما تشير إليه لا في كيانها الرمزي المادي المنطوق به أو المقروء)) [3].

ويتضح من هذا أنّ المعنى (الدلالة) هو الأساس الذي تقوم عليه الرموز اللغوية الصوتية والسمعية لكي تتم عملية الاتصال الفكري (اللغة). وقد تحدث نوري جعفر عن نشأة الكلام، إذ قال : ((نشأ الكلام المتحدث به على هيأة أصوات مبهمة يتبادلها أفراد المجتمع البدائي القديم في مجرى حياتهم اليومية في أثناء الصراع ضد الطبيعة العاتية من أجل البقاء،ثم أخذت هذه الأصوات بالتطور التدريجي بمرور الزمن الطويل وبالدقة والإحكام إلى أن تحولت إلى الكلام المنمق الذي بدأ بالتحدث به الإنسان العاقل)) [4].

ويفهم من هذا أنّ اللغة هي حصيلة التطور الاجتماعي ظهرت في أول الأمر على هيأة رموز صوتية متحدث بها ثم أضيفت إليها بعد ذلك بزمن طويل الرموز المكتوبة ثم الرموز المطبوعة، غير أنّ نشوء اللغة وتطورها ((لم يكن مستطاعاً إلا بعد أن بلغ دماغ الإنسان وجهاز الصوت عنده وحاستا البصر والسمع بدرجة معينة من الارتقاء، وقد عمل هذا الارتقاء بدوره على تحسين ظروف العيش الاجتماعية وتطورها . كما . عملت ظروف العيش الآخذة بالتطور من ناحيتها على تحسين الأسس الفسلجية المخية للكلام فاستمر هذا الأخير على تطوره باعتباره ظاهرة اجتماعية المحتوى فسلجية الأساس الجسمي)) [5].

يتضح لنا من هذا إذا أنّ اللغة نشأت وتطورت تاريخياً جنباً إلى جنب مع نشوء ظروف العيش الاجتماعية وتطورها، وعملت بأثرها إيجابياً على تحسين حياة الإنسان المعاشية وجهزته بوسيلة جديدة للاتصال بالبيئة الطبيعية والاجتماعية وتسخيرها لمصلحته، أي أنّ اللغة ظاهرة اجتماعية تم نشوؤها في مجرى نشاط الإنسان الاجتماعي وفي زخم مغالبة الطبيعة.

---

(5) ينظر : المرجع نفسه : 56.

(1) ينظر : المرجع نفسه : 56.

(2) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(3) المرجع نفسه : 57.

(4) اللغة والفكر : 57.

وذكر نوري جعفر أنّ أثر اللغة لا يقتصر على نشوء الأفكار وتطورها، وإنما هو يشمل أيضاً إدراك الأفكار ونقلها أو تداولها، ولولا اللغة المكتوبة بالدرجة الأولى لاستحال نقل الخبرة الإنسانية عبر الأجيال ولانعدم الانتفاع بتلك الخبرة في مجرى تطور المجتمع الإنساني، وهذه الحالة تحتم على كل جيل أن يبدأ مجدداً من المكان الذي يبدأ به سلفه عند محاولته التعرف على نفسه وعلى العالم الذي يعيش فيه، وذكر أنّ للغة أثراً فعّالاً في حياة الشخص الانفعالية لأنّ باستطاعتها أن تستثيره ما تستثيره مسمياتها، ولها كذلك أثر كبير في تنظيم السلوك[1]. وأرجع أنّ ذلك كله ناجم بالدرجة الأولى والأهم من صفتي التجريد والتعميم اللتين تتصف بهما الكلمات التي تتألف اللغة منهما[2].

فعرّف التجريد بقوله : ((معناه قيام الأسماء أو الصفات مقام مسمياتها وموصوفاتها أو هو بعبارة أشمل، حلول الألفاظ محل الأشياء التي تدل عليها، أي انتزاع المسميات وتجريدها أو تحريرها لغوياً ونظرياً عن ارتباطاتها أو علاقاتها المألوفة ووضعها في علاقات لفظية أخرى، والتجريد هذا . هو من خواص المنظومة الإشارية الثانية . وهو مقتصر على الإنسان وحده ويحصل عن طريق الصور الذهنية التي تنبثق عن الظواهر البيئية الطبيعية والاجتماعية وتطابقها)) [3].

أما التعميم الذي يرتبط التجريد به أوثق ارتباط، فوضّحه بقوله : ((هو تعبير لفظي مفرد يعبر عن صفات كثيرة مشتركة موجودة بين مجموعة من المسميات، فكلمة (كرسي) مثلاً التي هي تجريد عن الكرسي المادي المحسوس، هي تعميم في الوقت نفسه تنطوي على الصفات المشتركة الموجودة بين جميع أنواع الكرسي التي يتعذر حصرها...، وهذا يدل على أنّ وظيفة اللغة الأساسية من حيث هي أداة التفكير والتعبير هي التعميم الذي هو نقل الخبرة الإنسانية والمعرفة عبر الأجيال المتعاقبة، والتعميم في جوهره هو معنى الكلمة أو فحواها))[4]. وعلى هذا فإنّ كلام (الببغاء) هو كلام بدائي يفتقر إلى التعميم، ويفتقر أيضا إلى التجريد، وذلك لأنه مجرد ترديد أصوات ترديداً آلياً لا معنى لها عند (الببغاء) نفسها، وأنّ المعنى الذي يفهمه الإنسان من هذا الكلام لا يحدث بسبب ترديد (الببغاء) إياه ؛ لأنّ الإنسان سبق أن اكتسب ذلك المعنى من البيئة الاجتماعية في مجرى حياته. وفي ضوء هذا الأساس وضّح نوري جعفر أنّ اللغة تستند فسلجياً إلى المنظومة الإشارية الأولى (الحسية) مثلما يستند البناء إلى الأرض، والمنظومة الإشارية الثانية (اللغة) لا تتعامل بشكل مباشر مع الإشارات الحسية الأمر الذي يؤدي إلى اتساع معاني الإشارات الحسية اتساعاً مذهلاً بفعل نشوء أساس جديد للنشاط العصبي الأعلى عند الإنسان ((تجريد إشارات المنظومة الحسية عن ارتباطها الواقعية وتعميمها أيضاً))[5]. وهذا يدل على أنّ الإنسان تخطى في أثناء تطوره الاجتماعي حدود المؤثرات الحسية الخاصة به وأنّ نشاطه العقلي وإن كان فسلجياً من حيث أساسه الجسمي إلا أنه في جوهره اجتماعي النشأة والمحتوى، وأنّ البيئة

---

(1) ينظر : المرجع نفسه : 58 .59.

(2) ينظر : المرجع نفسه : 96.

(3) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(4) اللغة والفكر : 56.

(5) المرجع نفسه : 60 .

الاجتماعية تنعكس في عمل المنظومتين الإشارتين المشترك وعلى هذا فإنّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يفكر عبر الألفاظ وفيها، ومعنى هذا أنّ المنظومة الإشارية الثانية (اللغة) أساس متين في تكوين الفكر أو الإدراك عموماً من حيث جوهره أو محتواه، وهذا ما أكدّه نوري جعفر من حيث أنّ نشوء الإدراك عبر اللغة أدى إلى جعل الفكر يتصف بالقدرة على الخلق والابتكار (1).

وذكر أنّ المنظومة الإشارية الثانية (اللغة) وأداتها الفسلجية المخية المتمثلة في الفصين الجبهيين بالدرجة الأولى تعد آخر حلقة تطورية اكتسبها الإنسان في مجرى عملية النشوء والارتقاء البايولوجية والاجتماعية، فالفصان الجبهيان اللذان بلغا أرقى تطورهما عند الإنسان العاقل، والمتخلفان التطور لدى أرقى الحيوانات يعبران عن مبدأ جديد للنشاط العصبي الأعلى عند الإنسان (مبدأ التجريد والتعميم وهو الصفة المميزة للغة)، وأشار إلى أن نشوء اللغة من حيث محتواها ومن ناحية مراكزها المخية وأعضاء الصوت الفسلجية عند الإنسان أحدث تبدلاً جذرياً ونوعياً من ناحية تكديس الخبرة الفردية على شكل معارف نظرية ونقلها من شخص إلى آخر ومن جيل إلى جيل تحدثاً وكتابة، وكذلك أخذت اللغة نفسها منذ نشوئها تؤدي الأثر الأول والأهم في حياة الإنسان وفي تطوره الفسلجي والاجتماعي، معنى هذا أنّ المنظومة الإشارية الأولى (الحسية) نفسها قد تعرضت لتطور لاحق نتيجة الحياة الاجتماعية، ولم تبق ذات طبيعة فسلجية صرفة . كما . هي الحال في الحيوانات(2).

الأمر الثالث : لغة الطفل :

لم نجد من خلال اطلاعنا على كتب اللغات والأصوات ربط لغة الطفل بالناحية الفسلجية، نعني بها : كيف نشأت المراكز المخية اللغوية الثلاثة (الحركي المسؤول عن نطق الكلمات، والسمعي المسؤول عن سماع الكلمات المتحدث به، والبصري المسؤول عن قراءة الكلمات) ؟

وضح نوري جعفر لنا في كتابه اللغة والفكر كيفية نشوء المراكز المخية اللغوية الثلاثة عند الطفل، إذ قال : ((دلت الدراسات الفسلجية الحديثة على أنّ المراكز المخية اللغوية الثلاثة لا تنمو جميعاً بشكل متناسق عند الطفل بعد الولادة ففي الأشهر الأولى بعد الولادة يبدأ ظهور المركز المخي الكلامي السمعي الذي يمهد بعد ذلك ببضعة أشهر لظهور المركز المخي الكلامي الحركي الذي يتضح كثيراً في نهاية السنة الأولى، ثم يليه بعد ذلك منذ السنة الثانية ظهور المركز المخي اللغوي البصري، وهذا يدل على أنّ الأسس الفسلجية المخية للغة تبدأ بالنشوء والارتقاء عند الطفل بشكل متدرج وأنّ الأقدم منها يهيئ الأساس المناسب لنشوء الأحدث، وأنّ الطفل لا يستطيع ممارسة أي شكل من أشكال الكلام قبل نضج المركز المخي المسؤول عنه ووصوله إلى مستوى معين))(3).

وإنّ ذلك مقرون بشرطين (4): الأول : حدوث نضج في الأجهزة الجسمية الأخرى ذات العلاقة بالكلام كاللسان والشفتين والحنجرة والحبال الصوتية وجهاز السمع والبصر. والآخر : وجود مجتمع يتداول اللغة من ناحية

---

(6) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(1) ينظر : المرجع نفسه : 62 . 63 .

(2) اللغة والفكر :63. لا

(3) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها .

محتواها يترعرع الطفل فيه، ومعنى هذا أنّ الطفل وإن كان يمتلك فطرياً مستلزمات الارتباط العصبي للمنظومة الإشارية الثانية (اللغة) منذ الولادة إلا أنه لا يستطيع التحدث باللغة أو قراءتها إلا بعد أن يبلغ تطور القشرة المخية عنده حده الأدنى حوالي السنة الثانية من العمر شريطة أن تتوافر له البيئة الاجتماعية التي تزوده بالأساس الاجتماعي للغة أو محتواها من حيث هي إشارات صوتية أو رموز مكتوبة ذات دلالات معينة.

وذكر نوري جعفر : ((فقد ثبت علمياً في الوقت الحاضر أنّ الكلام المتحدث به مثلاً من حيث وظيفته البايولوجية والاجتماعية لا يتوقف فقط على ممارسة جهاز النطق وظيفته بالشكل السليم، وإنما هو يتوقف أيضاً على جهاز السمع، وقد أثبتت دراسات فسلجية كثيرة معاصرة أنّ جهاز السمع هو أضعف الأجهزة الحسية عند الطفل المولود حديثاً ويليه جهاز النطق بحيث يخيل أنّ الطفل يولد أصم وأبكم، وقد ثبت أنّ عملية استنشاق الهواء والتثاؤب والصرخة الأولى في أعقاب الميلاد تلعب كلها دوراً فعالاً في فتح قناة استاخوس السمعية مما يؤدي بالسائل الجلايتني الكثيف الموجود في الأذن اليسرى بصورة خاصة إلى أن يخرج منها ليحصل السمع))[1]. وقد عزا سبب الصرخة الأولى بعد الميلاد مباشرة يرجع إلى ضعف قشرته المخية الذي لا يسمح له بالكلام مع العوامل الأخرى الفسلجية والاجتماعية التي يفتقر إليها الطفل في هذه المرحلة المبكرة من حياته[2]. إنّ تعلم اللغة منذ مرحلة الطفولة الأولى بالغ الأهمية في تطور الفكر عند الإنسان، وتعلم لغة الحديث في أول الأمر ثم لغة الكتابة بعد ذلك وعلى أساسه يهيئ للطفل الظروف الاجتماعية الملائمة لنشوء مدركاته العقلية ووظائفه العقلية العليا ومعرفته عموماً، إذ قال : ((وقد ثبت في ضوء الدراسات الفسلجية الحديثة أنّ دماغ الطفل متخصص بتعلم اللغة المحلية واللغات الأجنبية حتى السنة التاسعة إذا أحسن المعنيون بتربيته استثمار ذلك على الوجه الأفضل وهيأوا له الإمكانيات البيئية، وثبت أيضاً أنّ الطريقة المباشرة في تعلم لغة التخاطب في البيت بالاشتراك الفعلي مع الأسرة في شؤون الحياة هي أفضل أساليب تعلم اللغة...، والطفل يبدأ في مجرى نضجه المخي بصورة تدريجية بالتقاط الكلمات وينبري الراشدون المحيطون به إلى مساعدته، غير أنّ المبادرة في التعلم تأتي من الطفل لا من الكبار ؛ ذلك لأنه ملزم بتعلم اللغة لأنها أداته الوحيدة للتعبير عن حاجاته الجسمية والاجتماعية ووسيلة ربطه بالأسرة، ويعزى نجاح الطريقة المباشرة هذه في تعلم اللغة إلى عاملين أحدهما فسلجي والآخر سايكولوجي))[3].

وقد رسم لنا نوري جعفر أثر المراحل الأساسية لنشوء الكلام وتطوره عند الطفل، وهي على النحو الآتي[4] : المرحلة الأولى : ارتباط الكلمة بالشيء الذي تعبر عنه أو ارتباط الاسم بمسماه، ولحدوث ذلك لابد من وجود علاقة بين الكلمة والشيء الذي تدل عليه أو صلة موضوعية بينها وبين ما تعنيه، وإذا انعدمت تلك الصلة تعذر الوصول إلى المرحلتين اللاحقتين.

---

(1) المرجع نفسه : 65 .

(2) ينظر : المرجع نفسه : 66.

(3) اللغة والفكر : 143. 144 .

(4) ينظر : المرجع نفسه : 141. 142.

المرحلة الثانية : في هذه المرحلة التي تأتي في أعقاب المرحلة الأولى وبالاستناد إليها يدخل الراشدون المحيطون بالطفل طرفاً ثالثاً بين الكلمة والشيء الذي تدل عليه الأمر الذي يجعل الكلمة بالتدريج وبمرور الزمن وسيلة اتصال ذهني اجتماعي بين الطفل وبينهم لتداول الأشياء المحيطة والتعامل بها ومعها.

المرحلة الثالثة : المرحلة الأخيرة الأرقى التي تصبح الكلمة فيها ذات معنى خاص بالنسبة للطفل نفسه وتكون أداة فكرية ترتبط بكلمات أخرى لتنظيم سلوكه وارتباطاته الطبيعية والمجتمع،ولكي تقوم الكلمة بواجبها على أفضل وجه لابد من أن تتصف بالتعميم الذي هو جوهرها، وعملية التعميم هذه تستند في أصلها الفسلجي إلى عمليتي التحليل والتركيب المخيتين.

خامساً : موقف المعنى من الناحية الفسلجية :

يعد المعنى أكثر الأشياء جدلاً على مستوى النظرية اللغوية، أو على مستوى النظرية الصوتية، وظلت العلاقة بين اللفظ والمعنى تأخذ أشكالاً كثيرة، فمرة على شكل دال ومدلول، ومرة على شكل صورة حسية مادية، وصورة ذهنية، ومرة على شكل اللغة والفكر، وأنّ العلاقة بينهما فسرت أكثر من تفسير، بين الطبيعية والاعتباطية والوضعية [1].

أما النظرية الفسلجية فإنها تنظر إلى العلاقة بين اللفظ والمعنى من زاويتين، الأولى من زاوية العلامات والإشارات والأخرى من زاوية اللغة والفكر، أما العلامات والإشارات والرموز فهي تؤلف ما يسمى بالمنظومة الإشارية التي ينفرد بها الإنسان وحده، فالكلمات المنطوقة أو المكتوبة إشارات حسية تدل على الأشياء المادية التي انطلقت منها وبمرور الزمن أخذت تعبر عن الإشارات الحسية جميعها، وتحل محلها وتستثير الاستجابات الفلسجية التي ستثيرها مسمياتها أي أن الألفاظ اللغوية تعبر عن نفسها على شكل رموز صوتية مكتوبة أوجدها الإنسان نفسه في مجرى تاريخه الطويل لتنظيم حياته الاجتماعية، إن قيمتها الصوتية والسمعية تكمن في معناها أو دلالتها أو ما تشير إليه لا في كيانها الرمزي المادي المنطوق به أو المقروء[2] إذ إنّ هذا المفهوم قد تردد في كتاب نوري جعفر (اللغة والفكر) أكثر من مرة، قال : ((لاشك في أنّ الكلمة المتحدث بها والمكتوب،هي أكثر من مجرد شيء مادي محسوس (صوت نسمعه أو رمز مدوّن نقرأه) فهي فضلاً عن ذلك وبالدرجة الأولى والأهم تحمل معنى معيناً متفقاً عليه، ترمز إلى شيء أو تدل عليه أو تعبر عنه أو تشير إليه، وإنّ الإنسان يستجيب لهذا المعنى، وليس للصوت أو الرمز المكتوب في حد ذاته)) [3].

واستدل على صحة هذا القول بإجراء مختبري أجري على الكلمات المترادفة (أصوات مختلفة ورموز مكتوبة مختلفة والمعنى واحد) فإنّ الاستجابة تكون للمعنى وليس للصوت أو الرمز، إذ أوضح انه : ((في حالة تعبير عدة كلمات ذات أصول مختلفة ورموز مكتوبة متعددة عن معنى واحد فإن الاستجابة نفسها تحدث في جميع الأحوال، وقد ثبت مختبرياً ويؤيده مجرى الحياة اليومية، فعندما أصبحت كلمة (path) الانكليزية في إحدى التجارب منبهاً شرطياً يستثير استجابة شرطية معينة ثم استبدلت بكلمة أخرى تحمل المعنى نفسه ولكنها

---

(1) ينظر : علم الدلالة، أحمد مختار عمر : 18 . 19، علم الدلالة والمعجم العربي : 21 . 22، 31 . 32.

(2) ينظر : اللغة والفكر : 56.

(3) المرجع نفسه : 78.

ولما كانت الألفاظ المنطوقة أو المكتوبة ظواهر مادية محسوسة فإنّ معانيها أو الأفكار التي حملها أو الصور الذهنية التي تعبر عنها أو تشير إليها أو تدل عليها ظواهر لا مادية، إذ بين نوري جعفر : ((أن الكلمات تفقد جوهرها الفكري إذا اعتبرناها مجرد أصوات أو رموز مكتوبة ؛ لأنّ أهميتها الفكرية تكمن في أنها تنقل ذهن السامع أو القارئ إلى أشياء أخرى تختلف عن وجودها المادي المحسوس، فالفكر إذن يأخذ منطلقه من معاني الكلمات))(1). وعلى هذا ينكر فكرة عزل الصوت أو الرمز المكتوب عن المعنى ؛ لأنّ ذلك يخل بالوظيفة الجوهرية للكلام وهي الاتصال الفكري، إذ يقول : ((لأنّ هذا التبضيع يعزل الوظيفة الاجتماعية للغة من حيث هي أداة الاتصال الفكري بين أفراد المجتمع عن وظيفتها الفكرية الملتحمة بوظيفة الاتصال الاجتماعي ويفكك عرى الروابط العضوية النشوئية أو التطورية التي نشأت بينهما)) (2). وقد نتج عن هذا العزل، المبدأ اللغوي المغلوط الذي يرى أنّ علم الأصوات علم مستقل عن علم المعاني، إلا أنّ المعنى يمثل ظاهرة لغوية تعبيرية ؛ لأنه يعبر عن الصورة الذهنية على هيأة تجريد وتعميم تحملها الأصوات والرموز المكتوبة، أي المعنى من هذه الناحية عملية فكرية دون منازع (3) ثم يبيّن ذلك معتمداً على قول العالم الروسي مايكونزكي الذي يشبه اللغة والفكر بدائرتين متقاطعتين يطلق على مناطق التقاطع اسم الفكر اللفظي أو الفكر المعبّر عنه بالألفاظ، أي لابد لوجوده من كلمات تحمله وتسمح له بإبراز نفسه (4).

وقد أوضح نوري جعفر أطروحاته حول النظريات التي تفسر صلة اللغة والفكر وهي ما يأتي :

أولاً : نظرية العزل المطلق بين اللغة والفكر، ونكران وجود أي أثر لأحدهما في الآخر، وهي أقدم النظريات ويمثلها في الوقت الحاضر الفيلسوف الفرنسي بيركسون ومفادها : انتفاء وجود أية رابطة أو علاقة أو صلة بين اللغة والفكر لاختلافهما من وجهة النظر هذه في الطبيعة والوظيفة (5).

وقد نقد هذه النظرية، إذ يقول : ((لقد أحدثت نظرية عزل اللغة عن الفكر التي حصرت اللغة بالأصوات المتحدث بها وبالرموز المكتوبة واعتبرت كلاً من اللغة والفكر مستقلاً عن زميله أضرارا بالغة في دراسة جانب اللغة الصوتي وجانب المعنى : فدرست أصوات الكلمات بمعزل عن معانيها أو دلالاتها أو ارتباطاتها بالفكر . كما . درست من الجهة الثانية تلك المعاني المجردة باعتبارها فكراً لا يرتبط بأصوات الكلمات ورموزها الكتابية، وهذا تقطيع مصطنع لأوصال اللغة المتماسكة يسيء إلى طبيعة اللغة بمعناها الإنساني الاجتماعي الذي يتضمن...، تلاحم أصوات الكلمات وإشاراتها المكتوبة بمعانيها التي لا يمكن عزلها عنها دون الإساءة إليها، وقد نتج عن ذلك العزل المبدأ اللغوي المغلوط الذي مفاده أنّ علم الأصوات علم مستقل في حد

---

(3)المرجع نفسه : 123.

(1) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(2) ينظر : المرجع نفسه : 127.

(3) ينظر : المرجع نفسه: 136.

(4) ينظر : اللغة والفكر : 122.

ذاته ومنعزل عن علم المعاني وأنّ العلاقة بينهما علاقة آلية خارجية عارضة مؤقتة مما أدى إلى دراسة هذين العلمين المتلاحمين أو هذا العلم الواحد بجانبيه بالطريقة الكلاسيكية القديمة)) [1].

ثانياً : نظرية انصهار أو ذوبان الفكر باللغة التي يعد وتسن عالم النفس الأمريكي أول من صاغها في علم النفس بشكلها الحديث، ومفادها : انتفاء وجود فكر مستقل قائم في حد ذاته بمعزل عن اللغة أي أنّ الفكر لغة صامتة يتحدث بها المرء مع نفسه أو لغة خفية خالية من الصوت [2].

وذكر نوري جعفر أنّ الطفل يمر على ما يقول أصحاب هذه النظرية في مجرى نموه اللغوي، بثلاث مراحل هي :

1. مرحلة الكلام الجهوري الموجه نحو الآخرين أو اللغة التي يستمر على استعمالها طوال حياته تحدثاً وكتابة وقراءة.
2. مرحلة الهمس القصير الأمد التي يضطر فيها الطفل أحياناً على أن يهمس في إحدى أذني غيره عندما يريد التعبير عن نفسه، والهمس هو الوجه الآخر من وجهي الكلام الموجه إلى الآخرين.
3. مرحلة الكلام الخفي الذي يوجهه الطفل إلى نفسه في مرحلة من مراحل نموه أو مرحلة التحدث مع النفس بلغة صامتة وهي مرحلة نشوء الفكر.

وعقب على هذا بقوله إن الفكر إذا كان لغة صامتة فلا يبقى أي وجود لعلاقته باللغة،أي أنّ العلاقة بين اللغة والفكر تفقد وجودها[3].

ثالثاً : نظرية استقلال الفكر عن اللغة استقلالاً نسبياً مع تلاحمه العضوي بها والأثر المتبادل بينهما ويمثلها عالم النفس السوفيتي فايكوتيزكي، وملخصها[4] :

إنّ اللغة وإن كانت غير الفكر من حيث طبيعتها ووظيفتها ومن ناحية نشوئها التاريخي إلا أنها مع ذلك ملتحمة به التحاماً عضوياً غير قابل للعزل في مجرى تطور النوع الإنساني وضمن حدود تطور الفرد من المهد إلى اللحد، ومع أنّ هذا الالتحام أو الاندماج ليس بذي جذور فسلجية فطرية في الأصل فان جذوره تاريخية نشوئية على الصعيدين الفردي والنوعي على حد سواء، وعلى هذا فإنّ اللغة والفكر جانبان مشتركان ملتحمان ومتكاملان وإن كانا متميزين في عملية واحدة أو كيان متماسك موحد

أوضح نوري جعفر أنّ اللغة تعين الإنسان على تجسيد فكره أو بلورته وصوغه وتداوله ولولاها لاستحال ذلك، والفكر بدوره يعين اللغة على الدقة ويثريها بالمصطلحات [5].

وذكر أنّ معنى الكلمة يعد رابطة التلاحم العضوي بين الفكر والرمز التي تشير إليه تلفظاً وكتابة ؛ لأنّ المعنى ظاهرة لغوية وفكرية في آن واحد، فالصوت المنطوق به دون معنى هو صوت أجوف مبهم أو أعجم لا

---

(5) المرجع نفسه : 124.

(6) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(1) ينظر : المرجع نفسه : 126.

(2) ينظر : اللغة والفكر : 127.

(3) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

. اللغة هي في الأساس وسيلة تجسيد الفكر ذاته ونقله وتداوله بين الناس في التحدث والكتابة(2).

- إنّ اللغة وسيلة أو أداة اجتماعية وإنّ الكلمات المنطوق بها والمكتوبة واسطة نقل المعرفة تحدثاً وبالكتابة عن طريق عمليتي السمع والبصر وجهاز النطق(3).

. إنّ اللغة هي وسيلة الاتصال الفكري الوحيد بين الناس (4).

- إنّ اللغة عامل مهم في تنظيم سلوك الإنسان وتنسيق تصرفاته وتحريره من الخضوع (كالحيوانات) للمنبهات الآنية الحسية السريعة المباشرة (5).

ب . الفكر :

. الفكر أحد العمليات أو الوظائف العقلية أو المخية التي تشمل أيضاً الذاكرة والانتباه والخيال واللغة(6).

- إنّ الفكر وظيفة الدماغ غير أنّ الدماغ ليس هو في حد ذاته مصدر الفكر أو عامل حدوثه بل هو أداة ذلك الحدث (7).

- إن مصدر الفكر هو العالم المحيط بالإنسان أو بيئته الطبيعية والاجتماعية، وطبيعة الفكر نفسه ليست مادية ولكنها نسخة منها أو انطباع عنها، غير أنّ هذا الانطباع ليس ذا طبيعة فوتوغرافية بل هو صورة ذهنية (8).

. الفكر في جوهره عملية فسلجية مخية تمارسها القشرة المخية على شكل موازنة بين الانطباعات الآتية من البيئة المحيطة الجغرافية والاجتماعية عبر أعضاء الحس بالاستناد إلى اللغة والمعرفة وإصدار أحكام عليها واستنباط نتائج إيجابية أو سلبية منها(9).

- إنّ الفكر يصوّر الظواهر البيئية أو يسجلها مع ارتباطاتها الفعلية الموضوعية وقوانينها على صفحة المخ ويساعد الإنسان على فهمها والسيطرة عليها (10).

. الفكر نشاط ذهني ناقد أو فاحص ممحص يستبعد القيام بعمل طائش أي أنه يتريث ويستقصي ويستلزم نشوء رجع مؤجل أو استجابة تبقى في الذهن إلى أن تستوفي شروطها الموضوعية اللازمة لتخرج إلى حيز الوجود على هيأة تصرف يقوم به الفرد(11).

ج . الكلمة :

---

(7) ينظر : المرجع نفسه : 67 .

(8) ينظر : المرجع نفسه : 127.

(8) ينظر : المرجع نفسه : 153.

(9) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(10) ينظر : المرجع نفسه : 98.

(1) ينظر : المرجع نفسه : 99.

(2) ينظر : اللغة والفكر : 99.

(3) ينظر : المرجع نفسه : 106.

(4) ينظر : المرجع نفسه : 127.

(5) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(6) ينظر : المرجع نفسه : 154 .

. أما الكلمة من حيث هي رسم مكتوب أو صوت منطوق به فهي ظاهرة لغوية إذا نظرنا لها من حيث كونها الأداة الاجتماعية التي تحمل الفكر وتجسده(1).

. فالكلمة إذن كيان واحد متماسك فكري وأداة في الوقت نفسه تعبر عن الفكر على هيأة صوت ورموز مكتوبة أي أنّ الكلمة بالتعبير الكيمياوي جزئ اللغة (2).

. الكلمة تجريد وتعميم من حيث معناها أي أنّ المعنى جزء لا يتجزأ من الكلمة (3).

. فالكلمة فكر ملتحم بالصوت يشير إليه ورمز مكتوب يدل عليه(4).

. إنّ الكلمة المنطوق بها أو المكتوبة هي بالدرجة الأولى والأهم عند الإنسان إشارة مجردة لفظية إلى شيء آخر بصرف النظر عن الصوت الذي تحمله أو الصورة الكتابية التي تنطوي عليها (5).

. الكلمة بالتعبير الفسلجي تصبح منبهاً متفوقاً، أي أنها تنظم خبرة الإنسان المباشرة إذ يكون دورها في نشوء العمليات العقلية العليا بالغ الأهمية، إنّ باستطاعة الكلمة التغلب على نشاط المنظومة الحسية الإشارية , وإبطال مفعولها وعلى هذا الأساس يصبح بإمكان اللغة أن تطمس آثار الدوافع البيولوجية الفطرية جميعها عند الإنسان أو تبطل مفعولها أو تحولها إلى نقيضها، وهذا هو الذي يجعل مفعول الكلمة يتغلغل عميقاً في مشاعر الإنسان (6).

د . المعنى :

. المعنى ظاهرة لغوية وفكرية في آن واحد(7).

. المعنى ظاهرة لغوية تعبيرية ؛ لأنه يعبر عن الصورة الذهنية على هيأة تجريد وتعميم (8).

. المعنى عملية فكرية دون منازع(9).

. إنّ الشيء الحاسم عند الإنسان في مسألة اللغة هو المحتوى أو المعنى الذي تحمله الإشارة اللفظية المنطوق بها أو المكتوبة(10).

---

(7) ينظر : المرجع نفسه : 128.

(8) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(9) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(10) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(1) ينظر : المرجع نفسه : 81.

(2) ينظر : اللغة والفكر : 154.

(3) ينظر : المرجع نفسه : 127.

(4) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(5) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(6) ينظر : المرجع نفسه : 81 .

. الشيء المهم في جميع الإشارات والعلامات بما فيها الكلمات معناها وليس كيانها المادي الحسي (الأصوات أو الرموز الكتابية) [1].

(أهداف البحث)

لكل بحث أهداف يروم كاتبا البحث الوصول إليها من خلال بحثهما هذا ما يأتي :

1. كشف البحث عن فكر نوري جعفر في تفسير نشأة اللغة البشرية فسلجياً من خلال التطورات التي حدثت في أعضاء النطق المختلفة وكذلك التطورات المخية التي حدثت في قشرة الدماغ ولاسيما في المناطق المسؤولة عن الوظائف اللغوية، صوتاً، وإشارات، وعلامات، وكذلك العلاقة بين المنظومة الإشارية الأولى، المسؤولة عن الحواس والمنظومة الإشارية الثانية المسؤولة عن اللغة التي ينفرد بها الإنسان.

2. بيّن البحث أنّ اللغة البشرية لم تصل إلى ما وصلت إليه من تكامل في التجريد والتعميم إلا بفضل العلاقات الفسلجية التي تربط الحواس وأعضاءها والمراكز المخية ووظائفها من جهة والبيئة الطبيعية والاجتماعية من جهة أخرى.

3. عرض البحث علاقة علم الأصوات (جهاز النطق وتطوراته) بعلم الفسلجية والتي لها أثر في تكوين الأصوات من خلال تطورات أعضاء النطق.

4. درس البحث موقف المعنى من الناحية الفسلجية، فقد تبين أن العلاقة بين اللفظ والمعنى بمنظورين، الأول : العلامات والإشارات والرموز التي ينفرد الإنسان بها، والآخر : اللغة والفكر.

5. كشف البحث أنّ ما جاء به نوري جعفر يندرج تحت فرع من فروع علم اللسانيات، يسمى علم اللسانيات البايولوجي القائم على الكشف عن العلاقة بين الوظائف اللغوية والوظائف المخية أو الدماغية، إذ انّ هذا الكشف يفتح أبواباً واسعة لتفسير كثير من الظواهر اللغوية عند الإنسان منذ الطفولة ووضع الحلول المناسبة لها ولاسيما في حقلي التربية والتعليم.

وأخيراً نقول : إنّ ما جاء به نوري جعفر لكي يكون أكثر إقناعاً وعلمية من النظريات اللغوية والصوتية التي تناولت موضوع نشأة اللغة وموضوع الأصوات اللغوية تحتاج إلى معرفة شيئين :

الأول : معرفة تكوين جهاز النطق عند آدم . ع . ؛ لأنه أول من تكلم باللغة البشرية.

والآخر : هذه النظرية لم تفسر لنا كيفية نطق عيسى . ع . وهو في المهد، إذ قال تعالى في كتابه المجيد : [إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ{45} وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ][2]، ويمكن أن يردَّ هذا على أنه إعجاز.

والحق يقال هنا إنّ ما توصل إليه جدير بالدراسة والبحث ولاسيما في حقل الدراسات اللغوية بقطع النظر عما يقال عن موضوع نشأة اللغة وموضوع الأصوات اللغوية.

المصادر والمراجع

. القرآن الكريم.

---

(7) ينظر : المرجع نفسه : 51.

(1) سورة آل عمران : 45 . 46.

- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني (ت392هـ)، تح : محمد علي النجار، ط4، الهيأة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1999م .

- دراسات في فقه العربية، د. صبحي الصالح، مطبعة دار العلم للملايين، بيروت . لبنان، ط10، 1983م.

-دراسة الصوت اللغوي، د.أحمد مختار عمر، (د. ط)، مطبعة النموذجية للأوفسيت، الناشر عالم الكتب، القاهرة، 1418هـ . 1998م.

-الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامه، أبو الحسين أحمد بن زكريا بن ع(د.ت)

-علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر، ط1، مطبعة مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع الكويت، 1402هـ . 1989م.

-علم الدلالة والمعجم العربي، د. عبد القادر أبو شريفة، ود. حسين لافي، ود. داود غطاشة، مطبعة دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، 1989م.

-علم اللغة العام (الأصوات)، د. كمال بشر، ط5، دار المعارف القاهرة، 1979م.

-فقه اللغة في الكتب العربية القديمة، د. عبده الراجحي، دار النهضة العربية، بيروت، 1979م.

-في علم اللغة، د. محمد محيي الدين أحمد، مطبعة مكتب الآداب، القاهرة، 2001م.

-في علم اللغة العام، د. عبد الصبور شاهين، ط3، بيروت، 1980 م.

-كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المتقي الهندي (ت975هـ)، تح الشيخ بكري الحياني، والشيخ صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، لبان، (د.ت).

-اللغة والفكر، د. نوري جعفر، مطبعة مكتبة التومي، الرباط، المغرب، ط1، 1971م .

-معجم المؤلفين والكتاب لعراقيين 1970م . 2000م، د. صباح نوري المرزوك، ط1، مطبعة بيت الحكمة، بغداد . العراق، 2002م.

-موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين، حميد المطبعي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1998م.

-نظريات في اللغة، أنيس فريحة، مصر، ط1، 1973م.

- **الدوريات :**

* جريدة المؤتمر، نوري جعفر، 2009/2/19 م.